عندما تنطق الأحاسيس

مجموعة قصصية

عندما تنطق الأحاسيس

سليمان محمد أبو شارب

الإهداء

إلى سراج الفكر الذي يضيء عتمة الجهل بحكمة واقتدار... أبي

إلى من وضعت مفردة (الحنان) في قواميس الحياة ... أمي

الفهرس

- ثلث الليل الأخير 9
- وتحققت الأمنية 15
- غرفة مئة وثمانية 19
- أنثى حمقاء 27
- عرض غير مهتوك 35
- بائع القصيد 45
- تعاون معنا 53
- مبيت قومي 63
- غول النمل 73
- بصمات على شاشة العصر 83
- قبلة على الخليج 95
- أحلام لا تنضب 101
- سلم القمر 107
- ذلك التوقيع 113
- بهارات مشكلة 117
- حمار المدلل 127
- التخلص من فضلات الآخرين 129
- تمنيت أن أكون مثله 137
- مع مرور الأيام 141

ثلث الليل الأخير

كان يمشي نحو مشنقته بخطى ثابتة رغم ثقلها، فلم يعد يفصله عن الموت سوى بضعة أمتار، حدق في الحبل الذي سيلوذ برقبته فوجده مرعبا، لقد كان يخشاه منذ الصغر، فقد كان يلتفت للوراء مجرد ما مر مشهد إعدام عبر شاشة التلفاز، لم يكن يتوقع أبدا أن نهايته ستكون مأساوية إلى هذا الحد، ولم يخطر على باله أن المشاهد التي كان يخشاها في يوم من الأيام سيكون هو بطلها في هذه الساعة، لقد كانت لحظة صمت رهيبة خشعت لها الآذان، فقد توقف عن المسير مجرد اقترابه من المشنقة، وارتجفت شفتاه بشكل ملحوظ، وتوغلت عيناه بشدة، وأصبح عرقه ينصب بغزاره كوابل أجاج، شهق نفسا عميقا اهتز له كامل الجسد وكأنه يستعيذ من لعنة برد قارصة قادمة، وبدأ يهطل الدموع حتى ارتوت الوجنتان، لقد كان منظره مشفقا للغاية، لكن هذه الشفقة لم تدخل قلبي الشرطيين اللذين بجانبه، فجراه بقوة نحو مصيره المحتوم، حينئذ لم يتمالك نفسه وأخذ يصرخ بقوة مما اضطر أحد الشرطيين لصفعه بقوة على وجهه قائلا:

- كفى! فلن ينجيك صراخك من الموت أبدا، ارض بقدرك،وقل لنا إن كنت تريد شيئا أخيرا من هذه الدنيا.

أرجعته هذه الصفعة لتوازنه الطبيعي، وتسلل السؤال إلى فؤاده بعذوبة، وكأنما قد أنقذه مما هو فيه، سرّح في خياله بعيدا وملئت الابتسامة فمه المبيض، تعجب الشرطيان من ردّة فعله وتبادلا نظرات الاستفهام! همس الشرطي الآخر في أذنه بسخرية

- هل تبتسم لملك الموت؟!

ثم سأله بحزم

- هل لديك طلب أخير؟!

هز رأسه بشدة كطفل صغير دلالة على الإيجاب، ثم قال متلهفا

- أريد رؤية زوجتي.

ضحك الشرطيان بشدة مجرد ما سمعا مرامه، واتهماه بالجنون فلا بد أن خوفه من الموت قد افقده عقله. فكيف له أن يطلب رؤية زوجته وقد ماتت مقتولة قبل مدة، وليس هذا فحسب بل كل الأدلة أثبتت أنه من قتلها، فهل يطلب القاتل رؤية ضحيته، إذن لا عجب من أن يستمر الشرطيان في الضحك.

لقد كانت زوجته آية في الجمال، وقد بذل قصارى جهده ليتزوجها، حيث أنه نافس العديد من الشبان الذين تقدموا لخطبتها بعزيمة قوية، حتى ظفر بها زوجة عزيزة على قلبه، وربطتهما المودة والرحمة بحبال متينة، وأصبح إخلاصه لها مضرب الأمثال للعديد من العشاق، وربما أن أقوى قصص عشقه لها قد تجلت في أسمى معانيها حينما تبين أنها لا تنجب الأطفال أبدا، ولن يكتب لها أن تكون أما في يوم من الأيام، فأظهر أمام عائلته أن سبب عدم القدرة على الإنجاب متعلق به وليس بزوجته، وذلك كيلا ينصح بالزواج على زوجته في يوم من الأيام.

رفعوه على كرسي الإعدام، وشدّوا عقدة الحبل حول رقبته، حينئذ شخّص بصره أمامه وكأنه يريد أن يموت قبل أن يشنق، أحس أن قلبه سيخترق صدره من شدة نبضه، وطاف حوله هاجس زوجته وهي تتأرجح في فضاء الغرفة ورقبتها معلقة بسلك الكهرباء المتدلي من السقف، لقد أخفى الاختناق علامات جمالها، وأصبحت جثة هامدة موحشة معلقة من رقبتها في وسط الغرفة، لقد كان على استعداد أن يشنق مئة مرة ولا يرى زوجته في

مثل هذا المنظر، على حين غفلة انتابه شعور السعادة حينما حكم عليه القدر أن يموت كما ماتت زوجته، فلا بد انه سيمر بكل مرحلة من مراحل موتها، وسيتذوق طعم الموت التي تذوقته زوجته بالنكهة نفسها.

- ألا تريد أن تنطق الشهادتين؟

كان الشرطي يسأله باهتمام، لعله ينال رحمة الله قبل أن ينتقل لمحطة الموت، لكنه ما يزال سارحاً بزوجته، متعجباً من مقتلها، فكيف داهمت الجرأة قلوبهم كي يتهموه بقتل أغلى الناس على قلبه. صحيح أن الأدلة قد أثبتت إدانته، لكن إحساس البراءة ما يزال يحلق في قلبه، ولا بد أن تظهر الحقيقة وينتصر الحق، حتى لو عانقت روحه الموت. تنفس الصعداء وحاول أن ينطق الشهادتين، لكن هناك شيء ما يصده عن النطق، فكيف له أن يستسلم للموت ولم يعرف بعد من قتل زوجته. ركّز نظره على باب القاعة، واستنجد بمن هم وراءه من خلال نظرات عيونه المغلوبة، فلعل أحدهم يأتيه بخبر البراءة.

- ما بك ألا تريد أن تنطق الشهادتين؟

- هل تريدنا أن ننفذ الحكم دون أن تتشهد؟

قال كل شرطي جملته بغيظ، بينما هو ما يزال يفكر في رحمة ربه التي ستنقذه من الموت، فهو لم ينسَ صباح ذلك اليوم المشؤوم حينما طلب من ربه الرحمة، وتمنى أن يكون في كابوس مؤلم ، فلم يتحمل قلبه المرهف أن يجد زوجته مقتولة بهذا المنظر الشنيع، فحينما دخل عليها الغرفة ووجدها مشنوقة بطريقة مرعبة، تجمدت كل الأحاسيس في جسده، وقف شعر رأسه من الهلع، حاول أن يتمالك أعصابه الثائرة، واقترب منها خطوة تلو خطوة وهو باسط يده أمامه محاولا أن يمسكها قبل أن يصلها، وقف أمامها كالتمثال،

وتفحص جسدها الهامد بعينيه، أمسك قدميها برفق وبدأ يقبلهما بحرارة، وفجأة صرخ صرخة مدوية قد أسمعت جيرانه وجعلتهم يهبون إليه للنجدة.

جلس أمام ضابط التحقيق، وبدأ بشرح ما حصل لزوجته بالتفصيل ودموعه قد اغرورقت في عينيه، فقال له الضابط باستحقار :

- هل تريد أن تخدعني بدموع التماسيح هذه، كل الأدلة تبرهن على أنك من قتلها!

- أدلة باطلة، أنا لم أعد أفهم أي شيء، كيف لي أن أقتل زوجتي.

وانهمرت عيناه في البكاء، فهو لا يصدق ما يحصل له، وما يزال متعجبا من هذه الأدلة التي جعلته مجرما

- يا رجل، هل أنت غبي لقد وجدنا شريط فيديو مسجلا عليه جريمتك منذ بدايتها، فضلا عن بصماتك التي وجدناها على سلك الكهرباء.

بالرغم أن أجهزة الأمن قد وجدت شريط فيديو يتبين فيه أنه من قتل زوجته، إلا أنه ما يزال ينكر قتله لزوجته، بل يدعي أنه يخرج في ثلث الليل الأخير من كل ليلة ليقوم الليل في المسجد، وبالفعل قد أثبتت التحريات أنه كان يخرج في كل ليلة وبالتحديد في ثلث الليل الأخير من البيت للعبادة، لكن التحريات أثبتت أنه قد قتلها بطريقة مؤلمة في بداية الثلث الأخير لتلك الليلة الملعونة، وبعد ذلك خرج كالعادة للعبادة، وحينما عاد في الصباح أصابه ما أصابه وكأنه ليس من قتلها، فقضيته ما زالت محيرة، والتناقضات ما زالت تقتحم شخصيته فكيف لرجل يقوم الليل في كل ليلة أن يقدم على قتل زوجته.

- اسمع يا هذا، إن كنت تماطل في نطق الشهادتين كي تؤخر الموت عن نفسك فهذا الأمر سيعذبك بدلا من أن يريحك.

وأخيرا قد أرخى أذنه للشرطي، وأغمض عينيه بهدوه، وبدأ بنطق الشهادتين.

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

حينئذ أقبل أحد الشرطيين نحو كرسي الإعدام لينفذ الحكم، لكن مجرد اقترابه ضجت الفوضى خارج القاعة، مما جعل الشرطي يتوقف عن تنفيذ الحكم، وذهب الآخر ليرى ما سبب الفوضى.

ربما أنها معجزة و ربما أنها نقطة تحول في تاريخ المحاكم، وبعيدا عن نهايات الأفلام السينمائية السعيدة، فقد دخل المحامي متلهفا وبيده قرار يوعز بوقف تنفيذ حكم الإعدام. فلقد أمر القاضي بتحويل المحكوم عليه إلى الطبيب النفسي. فقد طعن المحامي في الحكم، وظن أن الرجل مصاب بمرض في عقله، فالتناقضات المجبولة في شخصه تثير الاستفسارات حول صحة عقله.

حينئذ برز دوري، وأوكلوا لي مهمة كتابة تقرير بشأن حالته الصحية، وبعد أن أجريت له الفحوصات اللازمة تبين أنه مصاب بانفصام الشخصية، حيث أنه يظهر في ثلث الليل الأخير بشخصية السفاح المجرم بعدما يوهم زوجته انه خارج للعبادة، ويظهر في باقي اليوم بشخصية الرجل الملتزم الوقور.

بعد ظهور نتيجة الفحص تبين للمحكمة جرائم كثيرة كانت مجهولة، فقد فتح ملف جرائم ثلث الليل الأخير من جديد بعدما قيد الملف ضد مجهول، فقد كان السفاح المريض يخرج منذ فترة زمنية ماضية في ليال متفاوتة ويصعد على ظهر إحدى البنايات المرتفعة في قلب المدينة، ويطلق النار من سلاح كاتم للصوت على أحد المارة بشكل عشوائي، ثم يعود إلى بيته وكأن

شيئا لم يكن، وبذا يكون قد كشف سر جرائم ثلث الليل الأخير والتي أدخلت الهلع والذعر في قلوب الناس لفترة وجيزة من الزمن.

حاولت أن أتقرب منه كي أتمكن من علاجه بسهولة، ونجحت بالفعل في توطيد علاقة صداقة ما بيني وبينه، حتى اطمأننت إليه تمام الاطمئنان، لكنه في هذا اليوم كان غريب الأطوار رغم أننا لم ندخل في ثلث الليل الأخير، فقد تهجم علي ما إن رآني، وأمسكني من تلابيب ثيابي وأسند ظهري إلى الحائط بقوة، وحدق في عيني كوحش مفترس، حتى خشيت على نفسي منه وكدت أنادي على رجال أمن المستشفى ليخلصونني منه لولا أن تركني فجأة وانقلب حاله إلى رجل متزن عقلاني، فابتسم في وجهي ورتب على كتفي قائلا:

- أما كان بإمكانك أن تخفي نتيجة فحوصاتك عن المحكمة، أو بالأقل عني أنا بالذات.

ثم اقترب من أذني وهمس فيها بشجن

- ألا ترى أنهم لو شنقوني مئة مرة سيكون أهون علي من حياة مريضة تذكرني بإجرامي وتقطع ضميري من هول تأنيبه.

ابتعد عني قليلا ثم عاد إلى فراشه وحدثني بجملته الأخيرة قبل أن يخلد للنوم

- كم أحتاج يا صديقي لثلث الليل الأخير كي أرتاح من تأنيب ضميري.

النهاية

وتحققت الأمنية

يعجبني ما يصدر منه، وأكثر ما يعجبني فيه حرصه على النظام وإتقان العمل، لم يكن هدفه مخالفة أولئك المتهورين،إنما كان يحرص على إرشادهم إلى الصواب.

كدت أختنق، وأصبحت أشهق نفسي وكأنني أسترجع بقايا الروح خشية الموت، فربما إنني معلق على مشنقة صماء وقد حكم علي بالإعدام لسبب أجهله، فوجهي المسود، وعيناي البارزتان، وأذناي المسدودتان دلائل على بدء تنفيذ الحكم، فلولا صافرة هذا الشرطي لسار الحكم في مجراه، ولفقدت نفسي بين هؤلاء. أوقف الشرطي الحافلة، وأنزل الركاب الواقفين، حتى أصبح عددهم يساوي أو يزيد عن أعداد الركاب الجالسين.

جميع من في الحافلة باتوا يراقبون حالة السائق وهي تتغير للأسوأ، بعدما كانت السعادة تغمره لجني الأرباح المنتظرة، بينما كنت أنا مشغولا بمراقبة الشرطي وهو يوعظ ويرشد السائق والركاب بكل لطف، فقد بين للجميع النتائج السلبية التي من الممكن أن نتعرض لها إذا ما خالفنا القوانين والأنظمة، بصراحة لقد أعجبني تصرفه وحرصه على النظام وسلامة الركاب.

أصبح كل راكب من ركاب الحافلة يخمن في عقله قيمة المخالفة، وقد بدأ الجميع بالتنافس في تخمين الأرقام المرتفعة، وبالنسبة لي فقد كنت من أصحاب الأرقام المرتفعة، فلم ينقطع تفكيري بتاتا عن استرجاع الأرقام الكبيرة، لكن كل نتائج التخمين قد ذهبت أدراج الرياح، مجرد ما تلفظ هذا الشرطي جملته الغريبة.

- رح الله يسهل عليك!

نظفت أذني بشدة، وحاولت استرجاع جملته في مصنع عقلي، بينما استقرت علامات التعجب والذهول على وجه كل شاهد على الحدث، والدهشة ما زالت تحتل نبضات القلب العادية، حتى صار

قلب كل واحد منا ينبض بالدهشة، فأصبحت الأسئلة تتبادل بين الحضور بهمس تام.

- هل يعقل أنه سامحه، ولم يحرر له أي مخالفة؟

بالفعل لقد سامحه، ولم يحرر له أي مخالفة

- هل من الممكن أن يخالف النظام، ولا يحرر المخالفات للمخالفين؟

ربما انه أراد أن يستحدث أسلوبا جديدا، يؤثر بالمخالفين ويردعهم عن أخطائهم دون اللجوء للعقاب والتوبيخ.

- هل من الممكن أن نكون مثله في موقف من المواقف؟

تمنيت أن أكون مثله، أو أن يكون أبي شرطي مرور، أو ربما كان أخي، على العموم سأتخذه قدوة لي، وسأسير على نهجه في سبل حياتي. حاولت ان أشكره وأبين له مدى الاحترام الذي أصبحت أكنه له، لكن حجزي لأحد مقاعد الحافلة الأخرى حال بيني وبين الشكر، لكن لا بأس، سأشكره في قلبي طوال حياتي. في تلك الليلة لم أترك أحدا من أفراد عائلتي حتى قصصت له تلك الحكاية، لدرجة أنهم ملوا من حديثي، وفارقوا مجلسي!

اليوم يوم جديد، وموعد جديد مع رحلة المواصلات الشاقة، والأمور تسير كالمعتاد، زحام، ضوضاء، سرعة، وما زال حلمي يرافقني مع كل حافلة أستقلّها، أن أرى ذلك الشرطي، ليس شرط أن أرى شخصه بالذات، إنما أتمنى أن أرى تصرفه وحسن تدبيره في شخص كل شرطي مرور، وما زلت أحلم وأتمنى من أحلام تعانق مزن المثالية، حتى أيقظني من حلمي هذا الراكب الذي وطأ على قدمي، والعذر معه، فكيف له ألا يطأ على أقدام الآخرين ولم يعد في ممر الحافلة رقعة كافية لاحتواء قدميه من التشرد، حينئذ تمنيت أن أرى ذلك الشرطي أمامي، لعله ينقذني من رحلة إعدام جديدة، بل عساه أن يوقفها للأبد، ألم يأن لي أن أصل لمبتغاي دون أن أتكبد عناء الاختناق، أم أنه أصبح حرام علينا أن نموت مرة واحدة في العمر، بعد أن تفشت مشاعر الألم في داخلي كرر صاحب القدم فعلته تلك،

ووطأ على قدمي مرة أخرى، لكن هذه المرة بشدة زادت من حدة الألم في داخلي، فرفعت رأسي نحوه على غفلة، لأنبهه من تكرار فعلته، فهذه المرة الثانية ولم يعد باستطاعتي أن أتحمله مرة ثالثة، لكن سرعان ما رفعت رأسي تيقنت تماما أن أمنيتي قد تحققت بالفعل، لقد رأيت ذلك الشرطي واقفا أمامي كمسمار مهترىء، لقد كان هو بعينه الذي يطأ على قدمي وهو يصارع الزحام بكامل قوته، لقد كان هو بعينه الذي تمنيت أن أراه للتو، لعله يخلصني مما أنا فيه، لكن كيف؟! وفي داخله كتلة هائلة من التناقض الملعون، ابتسمت وفي خاطري رغبة عارمة بالبكاء، لكني لم أسقط دمعة من دموعي الطفولية، بل وطأت على قدمه بمقدار حرقة قلبي، فتهجم بوجهي، وهو عابس المنظر، فهز برأسه بشكل استعراضي وقال لي بلهجة حادة:

- خير!

قلت

- وتحققت الأمنية

النهاية

غرفة مئة وثمانية

فيها تزوجا، وفيها قتل، وقبل ذلك بقليل لجأ إليها علي هربا من أبيه، أما ابتسام فقد أنجزت فيها مهمتها الأخيرة قبل الاستقرار في بيت صغير بإحدى البلدان الخارجية.

كانت تصرفاتهما غامضة ولم يفصحا إلا عن اسميهما، فلم يزعجا أحدا طيلة مكوثهما حتى لو بهمسة، فالفندق يكاد ينسى أنهما من نزلائه لولا دفاتره التي ترصد أسماء النزلاء باستمرار.

دخل مع عروسه باب الفندق وحجز غرفة تحمل رقم مئة وثمانية، عرضوا عليه الشروع بمراسم الزفاف كضيافة وتبريك من الفندق. لكنهما رفضا، ففي منطقتهما عزاء.

لملموا شتاته بغطاء أبيض، ووضعوه بثلاجة الموتى حتى يحين موعد الدفن، كانت ثلاجته تحمل الرقم (108). منظره كان مروعا للغاية، فأشلاؤه المقطعة لم تغب عن بال غاسله بعد، وابنه ما زال يغشى عليه حينما يتذكر صورة أبيه الأخيرة.

اجتمع أهل القرية بأسرها أمام بيت أبي علي، فأخيرا قد حضر الضيف الجديد، وأشرقت السعادة على دنيا أبي علي ، فقد أنجب ابنه الأول الذي طال انتظاره، وقد بدا على كل ضيف من الضيوف الارتياح التام، والفرحة الحقيقية ما تزال تنبع من عيونهم. فأبو علي شخص طيب ولا يستحق إلا كل خير، فهذه شهادة معارفه له، فهنيئا للضيف الجديد بالتربية الصالحة التي سيحظى بها.

قبل ذلك بسنوات، قدم أبو علي استقالته لوزير التربية، فلم يعد قادرا على تقديم المفيد لطلبته، فعقله مشوش بقضية الإنجاب، ولن يقدر أبدا أن يخون طلبته، فهو من النوع الذي إذا عمل عملا أتقنه، فكانت استقالته الحل الوحيد له كيلا يكون مضغة لينة تحت أنياب الضمير المفترسة.

جمع ما اكتنزه من نقود طيلة حياته، وانطلق هو وزوجته إلى رحلة علاج طويلة خارج البلاد، وقد صاحباها برحلة إيمانية بحتة،

ممتزجة بجرعات الدعاء المتصلة، فالبنون زينة الحياة الدنيا، وقد استجاب الله لهما، ألم يأمرنا الله بالدعاء؟ ألم يعدنا أيضا بالاستجابة؟ ألم يكن أبو علي صاحب خلق ودين عظيمين؟ فهنيئا له باستجابة الرب.

مهنة معظم الأطفال المستقبلية هي الطب، وربما قد صادفنا أحد الأطفال في حياتنا وسألناه عما سيعمل في المستقبل، حينئذ سيصيح بصوت عال قائلاً: طبيب، وهكذا كان حال علي، فحينما يصادفه أحد المارة ويسأله السؤال ذاته يجيبه علي بالإجابة ذاتها، والأب ما يزال ينتهز كل فرصة لاستغلال إجابة الابن لصالح ذلك المستقبل، فقد ترسخت تلك الإجابة في ذهن علي منذ الصغر، وكافح الأب من أجلها، فعلي منذ هذه اللحظة هو طبيب القرية المنتظر.

مرة أخرى جمع أبو علي ما اكتنزه من نقود منذ انجاب علي حتى هذه اللحظة، فالتجارة عمل مبارك به، يكفي أنها كانت رزق عائلة أبي علي بعد تقديم استقالته، واليوم سيسافر علي ليعود بشهادة الطب. جهزت أمه متاعه ووضعت اللمسات الأخيرة عليها، وحبس والده أنفاسه المستنكرة للواقع بين خفايا جوفه، وتظاهر بعدم مبالاة واضحة، وتجمع أهل القرية حوله ما بين مدرك وغير مدرك وكأنه قصعة وهم الأكلة، وأقبل الأقارب من كل صوب، ليقبلوه القبل الأخيرة قبل السفر،إلا أن هذه القبل لم تغن عن لهيب حارق بجوف الأب، ودموع تنساب على وجنتي الأم، إلا أن الطب ينتظر من أحب الإقبال عليه، هيا يا علي جهز الركب وتوكل على الله.

أثناء رحلة نمو علي في قطار العمر، وبالتحديد عند وصوله لبداية محطة المرحلة الإبتدائية، كان الأب فخورا جدا بذكاء ابنه وتميزه في دروسه، لولا مادة الرياضيات التي كانت تشككه في ذكاء ابنه، هذه المادة نفسها التي جعلت أبوعلي ولأول مرة أن يلطم ابنه على وجهه بسبب مسألة حسابية، فقد كان يشعر أبوعلي أن هذه المسألة قد حطمت الفتى النابغة الذي تشكل في مخيلته، لذلك ما زال رقم (108) عالقا في ذهن الإثنين حتى هذه اللحظة، لقد كانت المسألة

عبارة عن جمع العددين(100) و(8)، وقد كان علي يعطي الإجابة رقم (900)، وكان له تبريره الخاص في ذلك، فقد كان يضع المسألة بشكل عمودي على هامش ورقة الإجابة، ثم يكتب الرقم(100) وبأسفله مباشرة الرقم (8)، ويضع اشارة الجمع في موقعها من المسألة، لكن كانت مشكلته أنه كان يضع الرقم (8) تحت الرقم (1)، فيحل الرقم (8) في منزلة المئات بدلا من الآحاد، ثم يقوم بعملية الجمع، وبعد مرات عديدة من تكرار حل المسألة بشكل صحيح من قبل الوالد، لم يتمكن علي من استيعاب الموضوع، لدرجة أن والده لم يتمالك أعصابه ولطمه على وجهه.

ليس من المهم البحث عن صحة تصرف الوالد في ذلك الموقف، المهم أن علي قد أصبح بعد تلك اللطمة من المميزين في مادة الرياضيات وبالتحديد في جمع المسائل الحسابية، وقد بقي الرقم (108) بالنسبة له رمزا معبرا عن التقيد بالتعليمات وطاعة الوالد.

ترعرع علي لسنوات عديدة في أحضان الدولة المستضيفة له، وتعلم الطب بمهارة تامة، وأنجز أحلامه وأحلام أبيه ببراعة، وقد كان والده يتلقى أخباره بشيء من الكبرياء المشروع، فقد كاد أن يصل طبيب القرية. وقد كان الرقم (108) شعاره في التميز، لكنه لم يعلم في الوقت نفسه أن هذا الرقم هو السبب في هلاكه لاحقا.

بعد مضي (108) أيام من سفره تعرف علي على فتاة من الجاليات العربية في تلك الدولة وأخبرته أنها تدعى ابتسام، لقد كانت صاحبة شخصية مرموقة، فقد كان السحر الملازم لشخصها يسري مفعوله في الشخوص الطيبين أمثال علي. لم يتمكن علي من التملص من سحرها والوقوع في حبها، رغم كل الشبهات التي تحيط بها، فهي امرأة غريبة الأطوار تنتمي إلى إحدى المنظمات المنبوذة اجتماعيا، وتستمد فكرها من طقوس دينية غريبة مستحدثة، وربما أنها وجدت في علي فرصة لنشر أفكار المنظمة التي تنتمي إليها في بلده. فقد وقع علي ضحية فتنة المال والنساء معا... اللهم إنا نسألك الرحمة.

لم يتمالك والده نفسه مجرد ما سمع الخبر، فقد جمع كل أنفاسه في يده لعلها تعينه على لطم ابنه الماثل أمامه الآن ليردعه عن فعلته، فكيف له أن يتزوج من هذه، لقد كان حلمه أن يعود ابنه طبيبا فحسب، يعين الناس على أحوالهم، ويساهم في رفعة مجتمعه، كيف له أن يصنع كل ذلك وهذه الشيطانة تقف بجانبه وتحتضن ذراعه بشغف وكأنها تريد أن تقول "ابنك لم يعد ابنك، ابنك أصبح منذ هذه اللحظة عبدا للشيطان".

ركع الأب على ركبتيه وعيناه ما تزالان تهطلان ماءً مؤلما، فلقد سأل ربه أن يعينه على مصيبته، فلعل الرب يستجيب، فأبو علي ما يزال صاحب خلق ودين عظيمين ، ولم يُعد ابنه لمثل هذا اليوم بتاتا، لقد سعى أن يصنع منه رجلا صالحا، خيره لمجتمعه وناسه، حقاً إنها الطامة.. لكن ما يزال هناك أمل يستقر في أعماق النفس قبل أن يقع ابنه في المحظور...

خرج علي برفقة عروسه وتوجه إلى فندق العاصمة الكبير، فلم يعد له مكان في بيت أبيه بعد اليوم. أعطوه مفاتيح غرفة (108) فقد حجز فيها دون أي خيار منه، ولم يسأل نفسه عن السبب، فربما هذه هي سياسة الفندق، أو ربما لم يتبق غرفة غير محجوزة في الفندق غيرها، لكن العجيب في الموضوع أن رقم الغرفة لم يلفت انتباه علي.

مكث لمدة معينة، وشرع بتنفيذ جمعية مختصة بالشيطان وأتباعه، وقد كانت ابتسام رئيسة الجمعية، والتمويل عبارة عن سيل جارف لا ينضب، وهذا شيء طبيعي بما أن التمويل مصدره خارجي.

انهارت حالة الأب الصحية، ولم تعد قدماه قادرتين على حمله، فاستعان بالكرسي المتحرك، وآثر البقاء في البيت ليتوارى عن أعين الناس، وعاهد نفسه ألا يخرج من بيته بتاتا لولا سماعه عن خبر انشاء تلك الجمعية الملعونة، لذلك خرج من بيته على كرسيه المتحرك بعدما ترك عقله وراءه وتوجه إلى الشارع الرئيسي لينقذ ولده مما هو فيه ، وقد كان قضاء الله وقدره أن يريحه مما هو فيه، وأن تنتقل روحه الطاهرة إلى بارئها، وأن يتحول هذا الجسد الزكي

إلى أشلاء مقطعة وملطخة بالدماء المقهورة، إثر حادث سير مروع لم يصل ترويعه إلى درجة الترويع التي أصابت المرحوم عندما رأى ابنه في حالته المنكوبة تلك.

لم يستجمع علي قواه، وذهب إلى المستشفى رغم معارضة ابتسام الشديدة، فقد آن الآوان كي ينسى أهله ويمحوهم من ذاكرته، لكن بقايا الضمير ما زالت مستيقظة في داخله. لكنها لم تستيقظ لمدة طويلة فقد أغشي عليها حينما أغشي على علي مجرد ما رأى أكوام أبيه.

بعد كل تلك الأحداث، قرر علي أن يستقر في بيت خاص به، لذلك توجه إلى موظف الفندق كي ينهي إجراءات الإقامة المؤقتة، لكنه تفاجأ أن حساباته مدفوعة سلفا، وحينما سأل عن ذلك، تبين أن والده قد حجز له في غرفة (108) على الهاتف قبل وصول علي إلى الفندق، وجاء بعد مدة بسيطة، ووضع مبلغا من المال يكفي لبقاء ابنه في الفندق لمدة لا بأس بها، وأعطى الموظف رسالة كي يعطيها لعلي حينما يقرر الخروج، بالإضافة إلى المال المتبقي له، فتح علي الرسالة وهو في هول الصدمة ووجد فيها خطابا من أبيه حيث كتب له:

"لقد حققت حلمي يا بني وأصبحت رجلا بالغا، وقد درست الطب وأبدعت به، كل ذلك كان بسبب لطمة لطمتك إياها وأنت صغير، لكني شعرت فيما بعد أنك ما تزال بحاجة للطمة أخرى كي تعيدك لرشدك، لكن كيف لي أن أفعل ذلك وقد أصبحت رجلا وأمرك بيدك، فقررت أن أذكرك فيما مضى وأحجز لك بالغرفة التي تحمل رقم (108) لعلها تذكرك بلطمتي تلك، وتلطمك نيابة عني وتعيدك إلى رشدك ودينك ومبادئك، فإني ما أزال أطمع بذلك، ومتيقن أنك ستفعل ذلك... فهلا فعلت يا بني؟!"

تغرغرت عينا علي بدموع الندم، وشعر فعلا بتلك اللطمة، واستيقظ الضمير الحي في داخله، وعاتبته النفس اللوامة بشدة، فقرر أن يعود لما كان، وما أجمل ما كان، فباب التوبة ما يزال مفتوح.

وتاب علي...

لكن إن كان هذا الخبر بمثابة فرحة عظيمة لكل عاقل ومتابع للحال، فلن يكون الأمر هكذا بالنسبة لابتسام ومنظمتها، فهذا أسوأ خبر يسمعونه على الإطلاق ، وخصوصا بعدما عرف الكثير والكثير عن أسرار المنظمة وخفاياها، فلا بد أن تموت تلك الأسرار في داخله. لذلك دخلت ابتسام غرفة (108) و أنجزت فيها مهمتها الأخيرة قبل الاستقرار في بيت صغير بإحدى البلدان الخارجية...

... لقد قتلت علي!

النهاية

أنثى حمقاء

لقد أصبح عمري اليوم خمسين سنة، وفتحت عقدا جديدا من عقود حياتي، ولم يتبق لي سوى عقد واحد كي أكتنف أحضان الشيخوخة. مجرد التفكير في انقضاء سن الشباب من رحلة عمري أتحول لرجل شرس متمرد، وأتخبط جدران بيتي بعنفوانية شرسة، وكأنني أريد إخبار الجماد أنني ما زلت شابا، ليس من الهين أن يرضى طموحي عقدا واحدا من الزمن، وليس من الهين أن أحقق كل ما تبقى من أحلامي الشبابية في عقد زمني واحد، لذلك لا بد من التفكير في موضوع ما يحافظ على شبابي وينقلني على محطة أحلامي بسعة. لذلك قررت أن أتزوج وبشروطي الخاصة.

توجهت نحو مبنى صحيفة " القلم" لأضع إعلاني هناك، استقبلتني الموظفة، وتبسمت في محياي قائلة:

- كيف لي أن أساعدك؟

فكرت أنها ستساعدني على أتم وجه لو أنها رضيت بي زوجا، لكنها ليست بتلك المواصفات التي جئت لأضعها في الإعلان، لذلك عدلت عن رأيي وبدأت بكتابة الإعلان.

" مطلوب فتاة عزباء تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، ذات قوام رشيق، ووجه حسن، يفضل أن تكون شقراء ذات عينين زرقاوين للزواج من أرمل يبلغ من العمر خمسين عاما ولديه سبعة أولاد"

ضجرت الموظفة مجرد ما سلمتها صيغة الإعلان واتهمتني بالجنون، فكيف لي أن أفكر بالزواج من فتاة بهذه المواصفات، قلت لها دفاعا عن إعلاني:

- ألست رجلا مثل باقي الرجال ولدي شروطي الخاصة في الزواج.

- بلى، ولكن التكافؤ مطلوب أيضا لإتمام الزواج، هل تظن أن الحرب قد وقعت لتجد الفتيات يرمين أنفسهن على الزواج بهذه الطريقة البشعة.

شعرت من خلال كلماتها أنني مجرم أبحث عن ضحية جديدة من خلال إعلاني هذا، لكنني صممت على إبقائه كما هو، فأردفته بعنوان بيتي ورقم هاتفي وبريدي الإلكتروني، وتوجهت إلى بيتي وأنا أعلم علم اليقين أنه لن تتصل بي أي فتاة.

سألني أولادي عن سبب صياغتي للإعلان بتلك الطريقة ما دمت واثقا أنه لن تتصل بي أي فتاة، فأجبتهم بإجابة مبهمة بعدما تركوا الحيرة تدغدغ أنامل قلبي، أغلقت على نفسي باب غرفتي وبدأت أبحث مع نفسي عن إجابة شافية لسؤال أبنائي، فلقد نجحوا بإدخال الحيرة لقلب أبيهم، كيف لي أن أقبل على الزواج بهذه الطريقة العجيبة، هاتفت صديقي غسان وشكوت له ما يؤرقني، فضحك ضحكة أخجلتني وقال لي بحدب:

- لو كان أولادك قد صاغوا الإعلان بتلك الطريقة المنفرة لقلت في نفسي أنهم لا يريدون تزويجك، لكن أن تكتبه أنت بيدك فهذا شيء عجيب.

أغلقت الهاتف بعدما اقترح علي مازحا أن يزوجني أمه التي تبلغ من العمر ثمانين عاما، فضحكت مع نفسي لبرهة وعدت أفكر في الإعلان من جديد. هل يا ترى أريد أن أقنع نفسي اللوامة أنني أقدمت على الزواج و لم أوفق في ذلك وبالتالي أسلم من إلحاحها الدؤوب، هل بت أخشى الخوض في تجربة جديدة لدرجة أنني أعجزت كلمات إعلاني، أم أنني أريد أن أحمي أبنائي من فكرة زوجة الأب الشريرة التي تظهر في الحكايات المأساوية. وسط ضجيج تفكيري الصاخب رن هاتفي وأيقظني من سبات التفكير، ظننت في البداية أن غسان قد اتصل بي ليمازحني من جديد، لكن الرقم غريب، ففتحت الخط وبدأت الحوار.

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ... سيد أحمد

توقفت للحظة عن التفكير، لقد كان صوتا نسائيا رقيقا، فخشيته بشدة، بل خشيت أن يكون متعلقا في الموضوع ذاته.

- نعم، أنا أحمد

- أنا عبير، اتصلت بك من أجل إعلان الزواج رقم تسعة في صحيفة القلم.

لم أستطع أن أتمالك نفسي من شدة العجب الذي اقتحم قلبي بوحشية مزرية، حسبت بداية أن الموضوع متعلق بغسان ومزاحه، لكنها قد حددت موعدا للمقابلة

- ما رأيك أن نتقابل أمام صحيفة القلم يوم الخميس القادم في تمام الساعة الرابعة عصرا وبعد ذلك نخرج سويا لأحد المطاعم القريبة للتفاهم.

- حسنا، موافق.

وافقت والذهول يكاد يصاهرني، فمزاح غسان ما زال يجتاح قلبي، فربما أنه قد استعار صوت فتاة ليمازحني من جديد، فقررت في أول الأمر عدم الذهاب، فلست على استعداد أن أكون أحد ضحايا مقالب السيد غسان، لكني خشيت عواقب الفضول، فهناك احتمال أن تكون الفتاة جدية وليس لها علاقة بصديقي غسان، لذلك قررت الذهاب.

ما أن وصلت حتى فتحت فمي مندهشا كالأبله، لقد كانت تلك الفتاة ذاتها التي رسمت ملامحها في إعلاني، وكأنها قد تشكلت من عجينة كلمات الإعلان لتتصور بصورتها الملائكية هذه، لقد كانت فتاة حسناء، شقراء ذات عينين زرقاوين، فضلا عن قوامها الرشيق، ويبدو أن عمرها مطابقا لما جاء في الإعلان. شعرت أنني في حلم يقظة بات يطرق باب مراهقتي المنسية من

جديد. عاثت في داخلي مشاعر البلوغ من جديد، فربما أن مبتغاي قد تحقق وعدت لمطلع شبابي من جديد.

لقد عشت معها فترة من الزمن لو قدرت بمال الدنيا لرفضت بيعها، لقد كانت فترة تعارف فيما بيننا، فقد خرجنا سويا، وتحدثنا كثيرا عن أمور متعلقة بشخصياتنا، لقد تغلغلت بأعماق شخصيتي لدرجة أنني أصبحت كتابها المفضل التي تطلع عليه وقت الحاجة بكل يسر وسهولة، شعرت معها أنني قد ولدت من جديد، فكم تمنيت لو أنها من أنجبت أولادي السبعة، إذن لأمضيت حياتي منذ مطلعها بسعادة وهناء!

أقسمت لها أنني سأبقى مخلصا لها طوال العمر، فلو طلبت ما طلبت لحققت مالم أحقق، فهي من جعلت في داخلي بوادر القوة لخلق الجديد، وهي من فتحت لي أبواب الأمل من جديد، وهي من أنشأت علاقة المودة بيني وبين الحياة، فهي فتاة فطينة، طيبة القلب، محبة للناس، منشرحة النفس، باختصار هي حالة نادرة قد أنعم الله بها على زماننا، لقد أحببتها بصدق وتمنيت من الله أن يمد في عمري كي أسعدها قدر الإمكان.

على حين غفلة سألني صديقي غسان بتعجب:

- ما دامت عبير تحظى بكل هذه المواصفات، والتي يحلم بها كل شاب فتي، فلم أرادت أن تتزوج من أرمل خمسيني، ولديه أولاد سبعة.

لا أنكر أنني تذمرت من تعجب صديقي، فربما أننا لا نرغب في مواجهة الحقائق التي قد تقودنا لألم التفكير، ولا أنكر في الوقت نفسه أنه قد وضعني في لحظة يقظة غريبة، جعلتني أتحرر من مخاوفي، وأكشف غطاء الجبن عن لساني، لأوجه سؤال صديقي لعبير بكل جرأة وثبات، فأجبتني هي الأخرى بكل جرأة وثبات:

- لأنني ببساطة أبحث عن النضج، فلطالما حلمت بالزواج من رجل ناضج.

بدأت علامات الاقتناع ترتسم على لوحة وجهي البيضاء، فزاد من اقتناعي تتمة جوابها.

- ألم تعرفني بعد يا أحمد؟! هل تحسبني غبية لهذا الحد كي أربط مستقبلي مع شاب متهور من شباب هذه الأيام، والذي ربما ما يزالون يعيشون مرحلة المراهقة الساذجة.

بلعت ريقي، واستنشقت أنفاسي العاشقة، ولكت شفتي العلوية بهدوء، ثم همست لها بكل رفق، طالبا منها أن تقبل بي زوجا، فقد حان موعد اجتماع ذرات الحب المتجانبة، تبسمت برقي قاتل تسبب في قتل لون وجهي الطبيعي ليحمر بشدة، وقالت بحياء متصنع:

- هذا منتهى عشقي، لكن عليك أن تمهلني لأيام كي أرتب أموري.

عدت لبيتي والفرحة تغمرني، وطلبت من أولادي أن نجتمع سويا في المساء للتباحث بأمر زواجي، وحينما حل المساء بينت لهم أنهم من أهم أولوياتي وأن عبير لن تأخذ مكانهم في قلبي، بل سأحتضنهم جميعا بكل حنان، فقلبي الكبير مستعد لذلك.

توجهت مرة أخرى نحو مبنى صحيفة " القلم " وأنا محمل بالهدايا الرائعة، فلقد قررت أن أعرب للموظفين عن شكري وامتناني، ألم تنطلق شرارة عشقي من مبنى هذه الصحيفة؟! وربما أنها ستنطفئ أيضا في المبنى نفسه، فقد كانت تجلس عبير مع الموظفة التي استلمت مني الإعلان وتمكنت من سماع حديثهما المسموم، حيث قالت الموظفة وسط ضحكها الخبيث:

- آه يا عبير، لم أكن أتوقع أنك ستنجحين في خداع أحمد الغبي هكذا!

تمنيت حينئذ ألا أكون ضحية مؤامرة حقيرة قد كان قلبي نتيجتها، وتمنيت أن تنكر عبير كلام الموظفة، تمنيت أن تعترف بحبها لي، وأنها تريد أن تتزوجني بعد أيام، لكنها قالت:

- كل هذا حصل بفضلك يا عزيزتي، فلو لم تطلعيني على إعلان المريض النفسي أحمد لما تمكنت من كتابة رسالتي الماجستير من خلال تشخيص حالة واقعية.

شعرت أن الأرض بدأت تتزلزل تحت أقدامي، فلم أتوقع أنني بعدما بلغت سن الخمسين سأكتشف أنني مريض نفسي على يد أنثى حمقاء كان هدفها أن تتلاعب بمشاعر الآخرين لتحقق انجاز وهمي. فزاد استفسار الموظفة من شدة غيظي

- وماذا عن خطيبك مراد؟! ماذا لو اكتشف علاقتك مع أحمد.

ضحكت المنافقة عبير ضحكة ثقة وقالت بغباء:

- وكيف لخطيبي أن يعرف، ما هي سوى أيام وسأنهي رسالتي وأترك ذلك الشهواني أحمد!

ربما أنني تذمرت لدخولي العقد الخامس من حياتي، لكن لولا هذا العقد وتغيراته البيولوجية لما تمكنت من ضبط أعصابي في هذه اللحظة، وربما سأقضي بقية عمري خلف القضبان، لكنني تعوذت بالله من الشيطان، وابتسمت لذاتي المقهورة، وحاولت أن أعود لبيتي لولا أن سمعت عبير خرخشتي وتفاجأت من رؤيتي، ولا بد أنها عرفت أنني سمعت حديثها

الملعون، لذلك نادت علي برقتها المعتادة، لكني نظرت إليها باستحقار ونعتها بالحقارة ثم ذهبت.

مرت شهور بعد تلك الحادثة، وقد أمضيت خلالها أروع لحظاتي مع أبنائي، فقد نظمت برنامجا للترفيه، وقد روحت عن نفسي كثيرا، فربما أنني كنت بحاجة لهذا الترويح منذ فترة، وربما أنني كنت مريضا بالفعل وبحاجة لرحلات استجمام كي أشفى، وفي تلك اللحظات كنت حريصا قدر الإمكان ألا أتذكر عبير، لكنها قد جاءت لي اليوم لتطرق باب بيتي وقد حملت في عينيها قصص الحزن والندم، فأمسكت يدي بقوة قائلة:

- لقد أدركت الآن قيمة النضج الذي كنت أحدثك عنه، وقد عرفت بصراحة قيمة الإخلاص للآخرين، وعرفت أيضا معنى الحب الحقيقي.

شدت قبضتها على يدي، وركزت نظرها في عيني بكل شوق، فتأججت نار اللهفة في قلبها ليتجرأ لسانها بالحديث دون أي حياء قائلة:

- ما كنت لأعرف قيمة ما عرفت لولا معرفتي بك... اسمع يا أحمد أنا منذ هذه اللحظة خادمتك، فقد تركني خطيبي مراد حينما عرف قصتي معك ، وقد جئتك لأنني أحببتك وعرفت قيمتك.

حاولت أن أتفوه بكلمات متكدسة بلساني منذ شهور لكنها سبقتني بالحديث لتقول لي وكأنها تعلم ما أريد قوله:

- لا تظن أنني جئتك لأن خطيبي قد تركني، فبإمكاني من الآن أن أشير بأصبعي لعشرات الشباب ليتقدموا لخطبتي، لكني أريدك أنت فحسب.

سحبت يدي من بين يديها بقوة، وعدت خطوة للوراء، واستجمعت أنفاسي بقوة وكأنني أريد أن أحمي نفسي من سحر أنوثتها الحمقاء، فقلت لها:

- أما تزالين تعتقدين أنني مريض نفسي ، فماذا عنك أنت؟

تركتها تنتظر المزيد من الحديث، وحينما تأكدت أنها على أتم الاستعداد للاستماع قلت لها:

- أنصحك يا أختي أن تراجعي مشرف رسالتك كي يتأكد من خلوك من الأمراض النفسية!

قلت جملتي قبل أن أغلق باب بيتي في وجهها بكل أسى تاركا أحلامي وراء الباب...

النهاية

عرض غير مهتوك

تجمهرت الصحافة أمام مخفر الشرطة، فالحدث غير طبيعي والقرية مسالمة ولم يحدث فيها ما حدث للتو منذ أن عرفها التاريخ ، اقتحم أبو مفلح الحشد بصعوبة بالغة محاولا أن يصل للضابط فؤاد، بينما كانت أم مفلح تلطم على وجهها، فلا داعي أن يتدخل زوجها في مسألة خطيرة كهذه حتى لو كان المختار.

حملق الضابط فؤاد في وجه أبي مفلح المشتعل بلظى الغضب، واستشف من تجاعيد وجهه جهله الموروث، وأدرك مدى سذاجة الموضوع الذي يحمله بين طيات لسانه من خلال مصارعته للصحفيين اللاهثين وراء نشوة الخبر. لذلك تلفت الضابط نحو عساكره وأمرهم بوضع الجثة في السيارة لنقلها للمدينة حيث مركز الأمن الرئيسي. حينئذ نادى أبو مفلح على العساكر بأعلى صوته وكأن القيامة قد قامت

- إلى أين تريدون أن تأخذوا الجثة؟! انزلوها حالا

تقدم الضابط فؤاد بعينين حمراوين ملتهبتين تكادان تحرقان الحقل المجاور، ووقف أمام أبي مفلح مباشرة، ثم قال بصرامة:

- لم تعينك الدولة قائدا لهذا المخفر كي تصدر الأوامر بدلا عني أيها المختار!

شعر أبو مفلح بخطورة الموضوع الذي كاد يورط نفسه فيه، لكنه لاحظ أهل قريته وقد بدأوا يتجمعون حوله فخشي الانسحاب وتلاشى إيحاءات زوجته التي تأمره بالرجوع، فنفخ صدره ورفع صوته قائلا:

- أنا هنا المختار ومن حقي أن أحافظ على سمعة القرية.

قرر الضابط فؤاد أن يتحدث مع أبي مفلح حسب عقليته وعقلية أهل قريته، فأمر المختار مطاع عندهم، وليس من صالح الضابط أن يعاند رأي قرية بأكملها، حتى لو كان الجهل يخيم فوقها، لذلك ابتسم ابتسامة صفراء وقال بكلل:

- ومن حق الحكومة أن تأخذ إجراءاتها وتحقق في القضية.
- ألا تعرف حكومتك أن إكرام الميت دفنه.
- حكومتنا تريد أن تحقق في مقتل هذه الفتاة المسكينة، وتريد أن تعاقب الجاني على فعلته.
- ما هذا الهراء الذي تتفوه به، كلنا يعلم أن أخاها قد قتلها ليحفظ ماء وجهه أمام البشر، فلقد كانت أخته...

كف أبو مفلح عن الكلام حينما بدأ أهل القرية بالاستغفار، والدعاء لبنات الناس بالستر، بينما أمسكت أم إبراهيم يد ابنتها بشدة وقالت أثناء مغادرتها المكان :

- صحيح أن همّ البنات للممات.

لم يلق أبو مفلح بالاً لكلام المرأة، بل استأنف حديثه مع الضابط بقليل من الجرأة المكبوتة

- يا حضرة الضابط، أرجو أن تفهمني وتقدر تقاليدنا، فحينما تنقل جثة سارة للمدينة، سيقومون بتشريحها، وفي الأول والأخير تبقى هذه الفتاة محسوبة علينا بعدما طهرها أخوها الشهم!
- التقاليد لا تطعم خبزا في هذه الأيام، لذا أرجو أن تجعلوا القانون يأخذ مجراه.

ضحك الطفل أيمن مجرد ما سمع كلمة قانون، ثم انطلق نحو أمه يطلب طعاما، فلطمته على وجهه ، فالوقت ليس وقت طعام.

ألقى الضابط نظرة خاطفة على وجوه القرويين ووجدهم مندمجين جدا مع حديث مختارهم، فاضطر أن يلجأ لشيخ مسجد القرية كي يحدث أهل قريته، وقد نجح الضابط في اختياره للشيخ، فإن كان أمر المختار مطاع عند أهل القرية فكلام الشيخ مقدس!

أوكلت القضية لضابط التحقيق صلاح، لقد كان رجلا مميزا في عمله، سريع البديهة، شديد الفطنة، قوي البنية، إن مشى أحدث في الأرض رنينا من قوة خطواته، فقد منحه الله طولا فارعا وعرضا متينا، وبدت القسوة تتخلل ملامح وجهه، فجبهته عريضة تكفي ليرسم عليها سماء بلا نجوم، وعيناه صارمتان، وأنفه ممشوق كالسيف،

فهيبته ستستوطن قلب كل من يراه. وحينما تسلم القضية أمر أن تحال جثة سارة للطبيب الشرعي، على أن يأتيه التقرير في الحال، وطلب من مساعده أن يجمع أسماء كل من يعرف سارة.

دخل أبو مفلح إلى مكتب الضابط صلاح بناء على طلبه، وبدأ الضابط بطرح الأسئلة على المختار، فبين المختار أن سارة ليست من قريتهم أساسا إنما أحضرها أخوها مسعود إلى قريتهم لتسكن مع خالتها التي تزوجت رجلا من قريتهم وتوفي عنها دون أن ينجبا أطفالا لتقوم سارة بعد ذلك على رعايتها وخدمتها وبعد فترة من الزمن توفيت خالتها وباتت تعيش وحدها، ليوسوس لها الشيطان وتعمل عملتها اللعينة مع هشام اللئيم. فهو لا يعرف أكثر من ذلك، وكان يتمنى أن يعفوا عن مسعود فسارة تستحق الموت وأكد لو أن ابنته سعاد فعلت فعلتها لقتلها حرقا، حينئذ طلب منه الضابط صلاح أن يحضر زوجته كي يستجوبها لكن الغضب قد تسلل لفؤاد أبي مفلح وأيقظته تقاليده من سبات المدينة، فصاح معترضا:

- من تظن نفسك كي تطلب مقابلة نسائنا، إياك أن تكرر ما طلبت، فـ...

على حين غفلة خبط الضابط صلاح مكتبه بيده، فأحدث صوتا تزلزل له المكتب بما عليه من جهة وأحدث ذعرا في قلب المختار من جهة أخرى، فاقترب الضابط نحو المختار كوحش يتربص بفريسته عن قرب، وقد جنحت قسمات وجهه للعداء، فأمسك تلابيب ثوب المختار كريشة فأسقط عباءته، وقال له بحدة:

- وأنت من تظن نفسك كي تتحدث معي بهذه الطريقة.

تلعثم أبو مفلح بارتجاف قائلا:

- أنا المختار!

فقال الضابط صلاح بحزم، ويداه ما تزالان قابضتين على تلابيب الثوب

- وأنا الحكومة بعينها، فإياك مرة أخرى أن تتجرأ وتتحدث مع أسيادك بهذه الطريقة، فالذي جعلك مختارا سيطحنك ويطحن أهل

قريتك إن غضب، إن كان الضابط فؤاد يلين في تعامله معك فهذا لأنه يعيش بينكم.

وترك ثوبه وأمره بالخروج، فهم أبو مفلح بالخروج وقد شعر بانكماش بات يقلص من شخصه ومكانته، حتى أنه نسي عباءته التي سقطت، فذكره الضابط صلاح بها بازدراء، فقال أبو مفلح والحسرة تكاد تقتل قلبه:

- اعتبرها هدية لحضرتك، فلم تعد تلزمني بعد اليوم.

بعد ذلك دخلت أم مفلح لمكتب الضابط صلاح والخوف يكاد يجتث قلبها ، لكن الضابط طمأنها برفق وطلب منها أن تحدثه عما تعرفه عن سارة وبعد ذلك ستغادر المكان، فقالت له أم مفلح إن سارة كانت تكره أن تسمع سيرة أخيها مسعود، حيث إنه أجبرها على ترك المدرسة رغم تفوقها الدراسي بعد وفاة والديها، وجعلها تخدم زوجته وأطفاله عنوة، وحينما جاءت للقرية تكفلت أم مفلح بإطعامها من مال الصدقات الذي كان يتجمع عند زوجها المختار ليوزعه على المحتاجين. لكنها ما لبثت فترة حتى قطعت المعونة عن سارة. وحينما سألها الضابط عن السبب، قالت: "إن سارة قامت بطرد ابنتها سعاد من بيتها" كما أنها لا تعلم لم طردتها، وأكدت أنها كانت ترى هشام يحوم حول بيت سارة بشكل يومي.

بعد أن نفضت أم مفلح كل مافي جعبتها بخصوص سارة طلب أن تأتيه أم ابراهيم، فدخلت إليه كما دخلت أم مفلح والخوف يسيطر عليها فجلست أمام الضابط صلاح وقالت إنها تكفلت بإطعام سارة بعدما قطعت أم مفلح عنها المونة، وكانت دائما تسأل عن السبب الذي جعل أم مفلح تقطع المونة عن سارة، وكانت تتعجب أيضا من حاجة سارة للمونة رغم أن أخاها مسعود فاحش الثراء كما سمعت عنه، لكن سارة بينت لها فيما بعد أن أخاها قد أجبرها على التنازل بحصتها من ورثة والديها لصالحه، وبعد ذلك بعثها لخالتها ولم يعترف عليها بأي شيء بل ربما أنه نسي أن لديه أخت تدعى سارة.

أخبر الشرطي المناوب الضابط صلاح أن مسعود قد سلم نفسه للعدالة، فأمر الضابط أن يدخل إليه على الفور، دخل مسعود إلى المكتب كما لو كان يدخل بيته، فقد كانت خطواته واثقة بالنجاة، وملامحه مكسوة بالاطمئنان التام، تعجب الضابط صلاح من هيئته وانعدام الخوف من وجهه، فسأله:

- ألا تخشى عاقبة فعلك؟!

- ولم أخشى ما فعلت؟! فأنا قتلت تلك اللعينة لأنها هتكت عرض العائلة، فرأسي سيبقى بعد اليوم مرفوعاً، ولا شك أن القانون سيقف بجانبي كما وقف بجانب الكثيرين من قبلي.

ضحك الضابط بصدق حينما سمع كلام مسعود، لكن واقع الحال قد كفه عن ضحكه، فبالفعل قد نجا الكثيرون من حبل المشنقة مجرد أنهم طهروا شرف العائلة. فرسم ملامح الحدة على وجهه وسأل مسعود:

- كيف عرفت أنها ارتكبت الفاحشة.

- لقد وصلتني رسالة من طفل صغير يدعى أيمن، حيث جاء بسيارة إلى قريتي مع شخص أجهله، وأعطاني الرسالة ثم انصرف.

- ماذا كان في الرسالة؟!

وأخرج مسعود من جيبه الرسالة وسلمها للضابط ليقرأها ، فقد تبين أن الرسالة قد كتبت من فاعل خير وقد جاء فيها أن سارة على علاقة غير شرعية مع هشام. بعد ذلك توجه مسعود إلى أخته وسألها عن قصة الرسالة، لكنها أكدت ما جاء فيها وقالت له إنها أيضا حامل بجنين هشام، وطلبت من أخيها ألا يتدخل بها أبدا، فإنه من غير المعقول أن يرميها رمية الكلاب وحينما تخطئ يتذكر أخوته اتجاهها، وقتئذ لم يتمالك مسعود ما مر عبر ممر أذنيه من حديث، فقام بطعن أخته عدة طعنات أدت لقتلها، وبعد ذلك أخبر القرية بقصتها فزفوه فرحين لرجولته المزعومة، وبالنسبة لهشام فلقد ولى هاربا ولم يظهر منذ ذلك الوقت.

طلب الضابط صلاح من جنوده أن يودعوا مسعود السجن، وأن يبعثوا الرسالة لخبير الخطوط لمعرفة صاحب الرسالة، كما طلب أن يحضروا له سعاد ابنة المختار، وحينما حضرت بدت للضابط أنها فتاة منافقة صاحبة وجه جميل يخلو من الحياء، حيث إنها هرعت نحو الضابط لتقبل يداه كي لا يورطوا هشام في القضية، فهشام بريء من اتهام سارة الشنيع، فتعجب الضابط من ثقتها الشديدة ببراءة هشام من تهمته الموجهة إليه، وحينما سألها عن السبب تبين أنها كانت تزور سارة لغاية في نفسها حيث إنها كانت تقابل عشيقها هشام في حديقة بيت سارة، فتعجب الضابط صلاح لما سمع، وسألها إن كانت سارة تعلم بعلاقتها مع هشام، لكنها بينت أنها كانت تستغفل سارة حينما كانت تعد الشاي في المطبخ وتخرج للحديقة لمقابلة عشيقها، وحينما رأى الضابط انهماك سعاد في الحديث وعلم أنها تحرص على الدفاع عن هشام، استغل ذلك لصالحه وسألها عن سبب طرد سارة لها من البيت، فقالت دون حياء أن سارة رأتهما في يوم ما وهما يقبلان بعضهما في الحديقة، ومن وقتها هرب هشام خشية ان تفضحه سارة عند المختار.ضحك الضابط في نفسه وتعجب أن تكون هذه ابنة المختار الذي كان أبوها يهدد قبل قليل أنه سيحرقها لو ارتكبت خطأ ما، فخرجت من مكتب الضابط بعدما توسلت إليه ألا يخبر أحدا بما حدثته فالقضية قضية ستر عرض فتاة!

تأفف الضابط صلاح بشدة وكأنه يريد أن يخرج أسرار القضية مع أنفاسه، وطلب من عساكره أن يحضروا له الطفل أيمن، وحينما جاء الطفل أيمن كان قد استقر الهلع مكان وجهه، فطمأنه الضابط بأسلوب محبب وأحضر له حلوى لذيذة، فاعترف الطفل أن سارة هي التي بعثته في سيارة العم كمال ليرسل الرسالة لأخيها بعدما أعطته نقودا ليشتري فيها حلوى كثيرة، حينئذ اشتعلت نيران العجب في رأس الضابط صلاح الذي أصبح جافا، وخصوصا حينما أصبح متأكدا من العم كمال أن سارة هي من بعثت الرسالة لأخيها مع الطفل أيمن.

دار الضابط صلاح حول مكتبه عدة دورات، ووقف عند الشباك وهو يستنجد بالأفق كي تفك شباك القضية، فكيف لسارة أن ترسل الرسالة لأخيها، هل تكون أمية مثلا لا تجيد القراءة، وقد ضحك عليها شخص ما وجعلها ترسل الرسالة لأخيها، أم أنها تعلم محتوى الرسالة وقد بعثتها لأخيها بكامل إرادتها، حينئذ طرق الشرطي المناوب بابه وجاء له بتقرير خبير الخطوط فكانت نتيجة التقرير بمثابة الطامة، حيث تبين أن سارة هي من كتبت الرسالة بيدها، حينئذ لم ينتظر الضابط صلاح أن يصله تقرير الطبيب الشرعي وكأنه قد خمن نتيجته مسبقا، فتوجه بنفسه على الفور نحو الطبيب الشرعي وظهرت النتيجة التي هزت أرجاء الصحافة، وتناقلتها الألسن عبر الأجيال، وأسرت مشاعر السامعين، فقد بينت النتيجة أن سارة ماتت وهي عذراء...

النهاية

بائع القصيد

توارى طيف أحلامه خلف أقنعة البؤس والشقاء التي تجثم فوق وجهه الفتي، ولا سبيل لإظهاره سوى سيل جارف من المعجزات المتناثرة عند أرصفة الضعفاء، سيل خال من الغثاء المنهمر من أفواه السكر والعربدة، خال من زعيق امرأة في منتصف الليل، خال من لطمات تتهاوى على وجوه طفولية تكاد لا تنطق.

كانت الأحلام تصعد به حيث أفق الحياة، فينسج من خيوط شمس الكون قصائد عذبة، يجسد فيها كل حلم تاه منه في خميلة التعقيد والقهر، ويغذي قريحته ببيان مقتبس من أنغام الصراخ المتواصل في قبرهم الذي يدعى بيت، فيغرد بفيه الجائع أروع ألحان قصائده التي تنقل واقع الحال عبر سكة الإبداع، لكن ثمة وحوش متلبسة بثياب البشر يحاولون دائما صيد الإبداع ونسبه إليهم مستغلين فاقة المبدع، وإبداع أسامة ليس كمثله إبداع.

ساعة الزمن ما زالت تمضي في كل بيت إلا في قبر أسامة، فعنده يتوقف الزمن، ولا يمضي به إلى مقتبل الشباب كي يحقق حلمه في التخرج والبحث عن عمل ما يعيل أمه المنهكة وأخوته شبه الجياع، ودواء ما يخلص أباه مما هو فيه، خيل له صوت أمه كأنين غزال يفترس وهي تناديه باختناق" قم يا أسامة، قم وخلصني مما أنا فيه، فأبوك ما يزال يعذبني، ورائحة خمره المنبعثة من فيه تكاد تسكرني... لا أريد أن أسكر يا بني فإخوتك سيستيقظون وهم جياع وأنا بحاجة لجزء من عقلي كي أتمكن من تأمين اللقمة لهم"

صعد الكلام عبر سلم مسمعه حتى استقر في أذنه وهمس له القدر أن أستسلم فهذا واقع حالك، وفج في صدره وميض إيماني كي يستمر فالحياة ما تزال بحاجة للمبدعين، أخرج قلمه من أعماقه وكتب قصيدة عن الشقاء، وأخرى عن البؤس، وثالثة عن الفقر، وزاد مداد قلمه في العطاء حتى صافح الكوارث المنسية.

رائحة الحريق كادت أن تحرق طيف الأحلام، فلم يكتف الشقاء بتوريته عن الأنظار إنما قد أصر على حرقه، مرت سحابة دخان أمام أنف أسامة، وبحلقت به متعجبة، كيف له أن يستجلب هذا الكم الهائل من الصبر وثيابه الجديدة تحترق أمامه، بل كادت أن تتحول لرماد يتراكم على إسفلت الحارة فوق المعجزات المتناثرة على حواف الأرصفة، لتبطئ من نهوضها وإسعاف أسامة مما هو فيه. فثيابه الجديدة التي اشتراها استعدادا للعام الجامعي الجديد قام أبوه بحرقها فهو بحاجة لمشروبه الخاص أكثر من حاجة ابنه للملبس، والملفت للنظر أن ثمن الثياب قد اقتطعت من أجرة أسامة بعدما عمل حمالا في إحدى المزارع القريبة من قبره في العطلة الصيفية.

لم يكن يتوقع بتاتا أن يطمس الخمر غريزة أبيه لهذا الحد، فلقد حاول جاهدا أن يجعله يترك دراسته ويلتحق بالعمل بشكل دائم كي يجني المال على الدوام، انطلق صوت عذب من صميم حنجرة أسامة يشبه تماما صوت قصائده العذبة " ما الذي يضيرك في دراستي ما دامت مجانية ولا أكلفك فيها أي فلس، تحملني ثلاث سنوات وسأكون كما تريد" كانت دراسته بمثابة دواودين ضخمة تضم قصائدة برفق، وتزف له البشرى بانطلاق شاعر جديد لم يكن له مثيل، إن همس همس شعرا، وإن نطق نطق شعرا، وإن تكلم تكلم شعرا، وإن عاش عاش بؤسا!

لم تتناثر الصرخات في سماء الصدى بشكل عشوائي، ولم تخرج من أعماق مجروحة سدى، إنما قد هزت كيان أسامة ولقحت في داخله مشاعر مرهفة ولدت قصائد عظيمة، حياة الضعفاء غالبا ما تبنى على الاقتصاد، فأسامة يحرص على استغلال الموجودات لصالحه، تماما كما استغل الصرخات المنبعثة من أفواه اخوته الصغار جراء ضرب والده لهم في تكوين أروع القصائد وأبهاها، وبالنسبة لزعيق أمه في منتصف الليل فقد كان يستخدمه قافية لكل قصائده لترن في طبلات آذان السامعين بقوة ، أمسكه أبوه من منتصفه ورفعه بقوة ثور هائج، ونعق في أعماق القبر نعيقا أسمع

آخر بيت من بيوت الجيران " عليك أن تترك الدراسة وتعمل، أريد نقودا، أريد نقودا، المشروب يعيد لجسدي روحه التي أفقدتموني إياها من وراء طعامكم اللعين، هل فهمت يا بني؟!". وستبقى اللطمات تنهال على الوجوه الطفولية مالم يغير أسامة رأيه، وستبقى أمه مجمعا صامتا لركلات قدم أبيه حتى يدبر أسامة النقود، حينئذ اختلجت مشاعر الألم أعماق الفتى، وانقشعت لعنة الصمت عن لسانه ليأسر الجدران المهترئة بحديثه " حسنا، كما تريد يا أبي، سأحضر المزيد من النقود، وستغرق بالخمر كيفما شئت، اتركهم أبي، أتركهم، فهم بحاجة لقليل من النوم بعد كل هذا العناء".

الصداقة الحقيقية تضفي على معنى الإنسانية رونقا ساطعا، وتملأ الحياة إصرارا وأمانا، ويستند إليها القرار حينما يريد أن يصدر، هذا ما كان يشعر به أسامة حينما يلتقي بهناء زميلته في الجامعة، لقد كانت مثالا يحتذى به في الإخلاص والصداقة، فقد كانت تبدي نصائحها لزميلها أسامة بكل أمانة وإخلاص وربما أن أهم نصائحها له عندما نصحته ألا يبيع القصيد!

قد يضطر الإنسان أحيانا لخطف قطعة من جسده كي يقدمها لأحبابه بكل سرور، فالعاشق يقدم قلبه لعشيقته وهو يضحك، بينما الأم تقدم كليتها لابنها إن احتاج وهي تبتسم، أما أسامة فقد قدم قصائده للناس وهو يبكي، لقد اضطر أسامة أن يبيع قصائده لطلبة كلية الآداب كي تساندهم على تحقيق أعلى الدرجات حينما يطلب منهم المدرس ورقة عمل أو تأليف قصيدة إن أمكن، ولأن المواهب تقتصر على فئة معينة من الناس، فقد هرع الطلبة نحو قصائد أسامة، فلم يتمكن من مجاملة هناء، ولم يصغ لها، فقد باع قصائده وانتهى الأمر وحينما عاتبته نبع صوت شجي من داخله " لو جربت يا هناء طعم الحصى لما اعترضت على بيع قصائدي، كل الذي أستطيع أن أقدمه لك في هذه اللحظة تعبيرا عن إحساسك ووقفتك معي هو هذه القصيدة، وعلى فكرة هذه القصيدة ثمنها غالي، ثمنها آه طويلة، أطول مما تتخيلين!).

ربما يلجأ الإنسان للتحايل كي يحقق ما يريد، وسواء وافقنا على فكرة التحايل أم اعترضنا، فإننا لن ننكر بتاتا أن أسامة قد نجح في إقناع أبيه حينما أوهمه انه ترك دراسته الجامعية والتحق بالعمل، فلم يخطر على عقل أبيه الملوث أنه من الممكن أن تباع الكلمات، مستبعدا أن الحياة بطولها وعرضها تباع بكلمة وتشترى بكلمة، بيد أن هناك اتجاه آخر للتحايل قد نجتمع معا في الاعتراض عليه كتحايل عمار على طلبة الجامعة، حينما نسب القصيدة التي ألقاها في أحد احتفالات الجامعة لنفسه، حيث أشاد الكل في قوة قصيدته، واكتمال خصائصها الفنية، رغم أن أغلب الحضور أجمعوا على فقدان إحساس عمار بالقصيدة رغم قوتها، وكأنه ليس صاحبها، وبالفعل لم يكن صاحبها، فأسامة قد اشترى لحما لأهله من ثمن قصيدته المباعة. وقد وصلت باقي المبالغ لجيب أبيه، فلينعم الجيران بطعم النوم الهادىء!

تعبيد الطرق غير المشروعة يحظى بالاهتمام أكثر من تعبيد الطرق المشروعة، وإن عم الفساد في الأرض فسينتشر كما الذر، لذا تفشى العجب في كيان الأستاذ عصام السائد، فلم يكن يتوقع في يوم من الأيام أن معظم طلبة كلية الآداب سيصبحون شعراء من الدرجة الأولى بين ليلة وضحاها، فبحث في الأمر حتى تبين أن قصائد طلبة الآداب تعود لأسامة، وأنه يبيعها لهم مقابل مبلغا من المال ليحصلوا على تأليف أصيل لم يكتب من قبل، الأستاذ عصام عضو هيئة تدريس في كلية الآداب، يناهز الخمسين من العمر، وقد أتيح له في حياته الكثير من النعم، فلديه المال والبنون والمكانة الاجتماعية، لكن كان ينقصه تحقيق الشهرة الواسعة التي كان يحلم بها طيلة حياته، لذلك عمد للشعر بحكم تخصصه الأكاديمي ونظم منه القليل دون أي موهبة، فخلا قصيده من الأحاسيس الصادقة والمشاعر الجياشة.

إذا توافر المال في غياب منظومة القيم، فستخضع المشاعر الإنسانية للتسعير بلاشك، وسيفقد الفقير حقه في ملكية الإبداع، فربما أنه صار للإبداع أسواق، وقصائد أسامة لم تعد اليوم ملكا له، فلقد

قرر الأستاذ عصام شرائها، وربما أنه كان يمتلك وجهة نظر خاصة به كي يتمكن من اقناع أسامة حينما قال له بثقة" لقد خلقنا الله في هذا الكون لإحداث التوازن يا بني، فكما تلاحظ أن الله أنعم عليك بقريحة الشعر ولم يمنحك المال، بينما قد منحني المال ولم يمنحني موهبة الشعر بالرغم انني قد خضت بحر هذا المجال، فلم لا نقدم لكل واحد منا ما ينقصه؟!" كانت كلماته تدوي في أذن أسامة كوقع الرعد في عمق الغيم، وأشد ما اثر على محيط أذنه هي كلمة بني التي انطلقت من في الأستاذ عصام للتو، لقد شعر أنه يشترك مع أبيه في هذه اللحظة بشكل كبير فحاجة أبيه للخمر لا تقل أهمية عن حاجة الأستاذ عصام للقصيد، وقد لفظ الإثنان كلمة بني لتحقيق المراد!

تخضع حياتنا ككل لأولويات مرتبة، فإذا لم نحقق الأساس لن ننطلق للأعلى مهما حاولنا، وإن لم يتوافر الخبز لن يتم التفكير في المسكن أبدا، وربما أن أسامة لم يستطع أن يفكر بالشهرة الأدبية، والدواوين المطبوعة، والأمسيات المتعاقبة، وربما أنه لم يدرك تماما مدى قدرته على تلوين المستقبل بأجمل الألوان، فالمعجزات المتناثرة تكاد تظهر لكن استغلال البشر لها منعها من الظهور في حياة أسامة، كانت مطالبه تدور حول محور واحد، وأصبحت البسمة تتسع على فيه شيئا وشيئا وهو يسرد ثمن قصائده على مسمع الأستاذ عصام" أريد طعاما، طعاما كثيرا، ولا بأس في القليل من اللحم، أريد أن أعيش في بيت بسيط يملؤه الأمان، خال من الغثاء المنهمر من أفواه السكر والعربدة، خال من زعيق امرأة في منتصف الليل، خال من لطمات تتهاوى على وجوه طفولية تكاد لا تنطق. أريد أن يعود أبي كما ولدته أمه، أريد أن أتكفل في تربيته من جديد، أريد أن أصنع منه أبا عظيما، وزوجا طيبا، أريد أن أمدحه في قصيدة طويلة تتألف من ألف بيت أو أكثر فأبيعها لك بأغلى الأثمان، صدقني يا أستاذ أنها ستصل بك لأعلى مستويات الشهرة، كما أنني أريد أن أنام، كي أتمكن من سبك القصيد، أريد أن تنام حارتي بهدوء، أريد أن أكون إنسان" كان أسامة يشعر وهو يقول مطالبه أنه طائر يحلق في سماء الجنة،

كان يظن أن ثمن قصائده لن تغطي تكاليف ما طلب، فهو يطلب المستحيل من وجهة نظره بينما كان المستحيل عند الأستاذ عصام عبارة عن قطة يربيها في بيته قد حققت مطالب أسامة منذ أن اقتناها الأستاذ عصام.

في كل زمن من الأزمان يولد المبدعون، وتظهر سمات التميز على وجوه معينة دون سائر الوجوه، وقد كان أسامة من ضمن هؤلاء المبدعين، لذلك فقد أنتج من القصائد مالم ينتجه أي شاعر من جيله، وسبك من معسول الكلام أبياتا من الشعر لم يسبكها أي شاعر في وقتنا الحاضر، فسماء موهبته ما زالت تمطر على أرض الأستاذ عصام كلمات ذهبية، وباع كل قصائده وما أنتجه للأستاذ عصام مقابل تحقيق المطالب، حتى صدرت الدواوين الشعرية المميزة باسم الشاعر عصام السائد، وهذا ما جعل الإعلام يصخب، والمجلات الأدبية تتصارع على حلبة اللقاء الحصري، وهذا ما جعل الأستاذ عصام السائد شاعرا متمكنا وقويا رغم بداياته المتواضعة، لذلك وجب إقامة حفل خاص لتكريم الأستاذ عصام وتتويجه للحصول على لقب أفضل شاعر في هذا العصر بعدما ذاق أسامة طعم الخبز.

النهاية

تعاون معنا

نفث الضابط سيجارته في وجه فضاء مكتبه، لتتشكل سحابة دخان خبيثة ضايقت الكهل محمود من شدة كثافتها، ابتسم الضابط ابتسامة ماكرة وكأنه رأى الضيق وهو يتسلل لفؤاد محمود، وطارت العصفورة مرتعدة عن بيضتيها التي وضعتهما في عش قديم على حافة شباك المكتب ، بينما اختفى الصرصار المقيم في المكتب في إحدى زواياه باحثا عن جحر للاختباء، غادر الضابط كرسيه وجلس أمام الكهل محمود مباشرة، وفتح علبة السجائر ومدها نحو محمود ليتناول سيجارة إن شاء، لكنه رفض العرض مع ابتسامة صفراء تخفي خلفها فضولا جامحا، كما أنه رمق الضابط بعينين وديعتين هادئتين كغزالين يرعيان في حقول الله بأمان، مستنبطا من ملامحه غابة موحشة مليئة بالقسوة والأنانية، محاولا تفسير الابتسامة التي تنفرج عن شفتيه طوال الحديث، لكنه أخفق في إيجاد التفسير لذلك سرح نظره في العش القديم، واشمأز كثيرا من الصرصار القريب، أخذ الضابط نفسا عميقا وكأنه يريد أن يدخل عالم الجدية بعد قضاء الوقت في الترحيب والكلام العام، فسأل وهو يزيل رماد سيجارته عن مكتبه بأطراف أنامله:

- هل تعرف لم أحضرناك هنا؟!

هز محمود رأسه نافيا وكأنه أخرس ، فتعجب الضابط من برودة استجابته فقال متهدجا:

- ما بك تحدثني بالإشارات؟! ألا تنطق؟!

- بلى، ولكن ماذا تتوقع مني أن أجيب وأنت تعرف الإجابة مسبقا، أنا رجل مسالم كنت أتناول الطعام مع أولادي وزوجتي وأحضرتموني فجأة وكأنني قاتل.

ضحك الضابط مجرد ما فرغ محمود من حديثه، وقال ساخرا:

- هل تعتقد أننا نحضر المجرمين فقط إلى هنا؟

وأردف حديثه بتهكم

- نحن نهتم كثيرا بالمسالمين أمثالك.
وأخرج سيجارة أخرى من علبتها، فوضعها بفيه دون أن يشعلها، ثم استأنف الحديث و سبابته تشير نحو محمود وكأنها تنطق
- رغم أنك لم تكن مسالما قبل ثلاثين عاما.
- وهل أحضرتني هنا، كي تحاسبني مرة أخرى عما حدث قبل ثلاثة عقود.
- لا، لا، رجاء لا تستبق الأحداث، فالذي حصل في الماضي قد تعاقبت عليه، وبصراحة قد أحضرتك هنا ، لأنني اعتقد جازما أن الثلاثين حولا قد غيرت كثيرا من طريقة تفكيرك، وربما أن الويل الذي تعانيه الآن بسبب غلطتك التي حصلت في الماضي العتيق ما تزال تؤنبك وتؤنب مستقبل أولادك، لذا فأنت تطمح لو عاد بك الزمن لتغير ما مضى، وها أنا أمنحك فرصة العودة للماضي الجميل.
ارتعش كيان محمود وكأنه يجلس على جليد صلب، وأخرج من العينين الوديعتين غضبا متناثرا في أرجاء المكان، وقال بأسى :
- عن أي غلطة تحدثني، أنتم تعلمون أنني لو عشت طوال حياتي محافظا على تلك الغلطة لما وجدتني جبانا مستسلما للقمة الخبز اليابسة.
وكتم الكهل شيئا من غضبه واسترد الوقار الذي كان يلازم جبهته وتحدث بنبرة صافية مليئة بالحنان
- إن كان لضميري أن يتلوع عذابا، فإنه سيؤنبني لأنني تخليت عن مبادئي التي تسميها غلطة لأنجو من عذابكم الزائف.
- عن أي مبادئ تتحدث، كل شيء يخالف قانوننا فهو حرام.
- قانونكم لم يهبط من السماء، ولم يغلف بالقدسية، كي ألتزم به
- ولكنك التزمت به، شئت أم أبيت فأنت ملتزم!
- لست مستعدا يا حضرة الضابط أن أعيد حديثا مضى عليه ثلاثون عاما، فكل شيء قد انتهى.
قبل أن ينتهي كل شيء كان الكهل محمود لا يتجاوز الثامنة عشر آنذاك من عمره، وكان مراهقا يافعا يحمل في داخله رجلا بالغا

يمتلك من الصفات الحميدة ما تجعله مطمعا لكافة الآباء، كان ورعا، محبا للخير، متلهفا للعلم، ويسعى بشتى الطرق للحصول عليه، لذا فقد تعرف على العلامة الشيخ عكرمة والتحق في حلقاته التدريسية التي تقام في مسجد البلدة الرئيسي، لقد كان محمود مثالا يحتذى به من قبل التلاميذ الآخرين من حيث سرعة البديهة، والالتزام التام بالحضور للدرس، والأدب في السؤال، وكثير من الأمور التي جعلته يحظى بمكانة عظيمة في نفس الشيخ عكرمة، فمحمود ما يزال يذكر كلمات الشيخ وما زالت تقتله لتخاذله وتقصيره في هذه اللحظة.

- إن بقيت هكذا يا محمود، فسيكون لك شأنا عظيما في الإصلاح بإذن الله.

ومرت الأيام ومكانة محمود ترتفع شيئا وشيئا عند الشيخ عكرمة، وقد تعرف محمود خلال تلك الأيام على رجالات صنعت الأمجاد، وساهمت في نهضة الأمة وإيقاظها من سباتها، حتى تأثر بهم كثيرا وأصبح يسير على نهجهم وخطاهم في كل خطوة من خطوات حياته العرجاء، لدرجة انه طلب من الشيخ عكرمة الانضمام لهم، فرد عليه الشيخ وفرحته بالمراهق تكاد تصفع الخوف على وجهه:

- لكنك تعلم أن رأينا محظور!

- رأيكم عبارة عن مجمع سخي لمبادئي التي رسختها في أعماقي، ونحن نعيش من أجل المبدأ.

- ليس من السهل أن تحافظ على المبدأ في ظل زمن تسوده الشهوات وتحكمه لقمة الخبز.

- منذ هذه اللحظة سيكون المبدأ هو خبزي.

- لكنك ما تزال صغيرا، وربما لن تتحمل ما سيجري لك من عواقب.

- الصغير هو مفتاح الكبير، إن أخمدوا روح الصغار فحتماً سيصلون لرؤوس الكبار.

- وماذا عن مستقبلك؟!

- سحقا لمستقبل خال من المبادئ والقيم.

ربما أن روح الشباب قد خانت الفتى محمود، وربما أن المبدأ لم يملأ معدته ويسد جوعه، فطعم الخبز لذيذ، لذيذ للغاية. فقد تم القبض عليه في ذلك اليوم المشؤوم والذي أدلى فيه رأيه بكل صراحة وكان قد بلغ وقتئذ السن القانوني وقد تجاوز الثامنة عشر ببضعة أيام، كما أنه أنهى دراسته الثانوية بنجاح باهر آنذاك، وقد كان ينوي السفر لدراسة الطب بالمجان، لكن السجن كان أقرب إليه من أحلام أمه التي انهارت مجرد ما سمعت الخبر، فابنها سوف يدخل السجن ولم يعرف معنى الحياة بعد، سيدخل السجن وأناملـه ما تزال لينة لا تقوى على حمل العذاب، فالعذاب وزنه ثقيل وأثره على النفس كبير، حاولت قدر الإمكان أن تدخل السجن بدلا من ابنها، لكن قانون الدنيا لا يؤمن بالغرائز، هرعت نحو المسؤولين لتصغير ابنها بضعة أيام كي يعتبروه طفلا غير مسؤول عن تصرفاته ويلتحق بالأحداث، لكن سرعان ما انحدرت كل محاولاتها البريئة نحو الفشل، فربما أن عقل الفتى قد نضج في أيام! بينما قد فقدت هذه الأيام قيمتها حينما انتظرت أم محمود موعدها لمقابلة أحد المسؤولين بفارغ الصبر.

أودع الفتى محمود السجن لمدة معينة، قد تذوق خلالها كافة أصناف العذاب المطهوة من قبل أفضل طباخي العذاب، محاولين نقض مبادئ محمود ونفشها كالصوف في دماغه الهش، كما أنه حرم من دراسته التي فقدها مجرد ما دخل السجن، وانهارت قوى الفكر عنده أمام قوى المعذبين، وأصبح حجم رغيف الخبز في عينيه كبيرا جدا، ولونه مدهش، ورائحته ممزوجة بدم طازج، ولم تتمكن أمه من رؤية ابنها إلا لمرة واحدة خلال مدة السجن، وكانت قد أحضرت واسطة هرمة شجعة تمكنها من رؤية فلذة كبدها بعدما باعت نعاجها لتدفع أجرة مواصلات الواسطة. ما أغلى المواصلات!

أجهشت أم محمود بالبكاء الحاد مجرد ما رأت صورة ابنها الفتية تقترب للكهولة من هول العذاب، وتمنت في تلك اللحظة أن تضمه لصدرها، وتقبله بعنف، لكنها لم تقدر من سياج السجن ذي

المربعات الدقيقة، لذا طلبت من ابنها أن يمد لها أصبعه، وحينما فعل، هجمت على أصبعه بفيها وكأنها قطة متوحشة قد وجدت فأرا مدللا، فأخذت تقبل أصبع ابنها وتلعقه بشراهة وهي تتخيل أن الأصبع قد أضحى رجلا وسيما يستعد للدخول على عروسه. لقد تخيلته ابنها!

مضت السنة وكأن أيامها قد تحولت لسنين، ويبس جلد محمود كما لو كان رغيفا يابسا، وتجمدت المبادئ تحت جليد عقله المتراكم في رأسه، باحثا عن شمس الحياة لتعوث المبادئ في باحات الكون من جديد، لكن بحثه عن طعم الخبز في الظلام قد منعه من رؤية النور في وضح النهار. اجتهد محمود في البحث عن أعمال حرة تمكنه من العيش بكرامة، فالوظائف قد حجبت عنه، وحقوق مواطنته قد اقتصرت على الحياة لمجرد الحياة، وتوارث أبناؤه فيما بعد نصيبه من الحرمان، فملف أبيهم أسود ولا يجدر لأبناء المخالفين التمتع بمواطنتهم على أتم وجه، وذنبهم في ذلك أنهم جاؤوا من صلب رجل يدعى محمود. عجبا لهم! أما كان لهم أن يختاروا أباً آخر؟! أباً محشواً باللحم، نظيفاً من المبدأ، أقصى أحلامه لقمة خبز مطلية بعسل مغشوش.

وعرف الضابط مدى حزن الكهل محمود على أبنائه لعدم حصولهم على أدنى أحلامهم، فدخل من خلالهم إلى قلبه المنهار، ونظر للحزن في عيني الكهل، واستأنف حديثه قائلا بمكر:

- فعلا ، كل شيء قد انتهى، لكن بإمكانك أن تبدأ من حيث انتهيت، وتصلح ما فات.

اشتد غيظ الكهل محمود وقال بتذمر، وكأن طيف المبدأ قد مر أمامه:

- لم أخطئ كي أصلح.

- ويل لك، ما تزال تصر على عنادك وعدم ارتكابك الخطأ رغم كل ما حصل معك.

- أتعلم؟! لو كان جسدي يتحمل ما تحملته في شبابي لواصلت ما قطعت، ولأتممت طريقي بكل حدب.

- ولم كل هذا، هل تعاند لمجرد العناد.

- أعاند من أجل المبدأ.
- المبدأ لن يطعمك أبدا.
- المبدأ سيصنع الطعام لشتى الأفواه الجائعة، المبدأ سيخلق لقمة لذيذة تبتلع بكرامة.
- اسمع، ودعنا من مبادئك...

وتوقف الضابط فجأة عن الحديث، وجر كرسيه وراءه ليصير أمام الكهل محمود ، وقد طابق ركبتيه مع ركبتي محمود، واستأنف حديثه بإغراء:

- تعاون معنا، وسنضمن كل أولادك، سنضمن حياتهم، ورزقهم، سنوظفهم بأحسن الوظائف، سنبني لهم أفخم البيوت، سنزوجهم، ولن ينقطع عنهم الخبز أبدا، واعلم أن الفرص قلما تتكرر، وأنه بإمكاننا أن نختار غيرك، لكنك أنت الآن تحظى بمكانة اجتماعية كبيرة، كما أن الناس تثق بك كثيرا ولن يشكوا أنك متعاون معنا أبدا. فما رأيك؟

ما كاد الضابط أن ينتهي من حديثه حتى تزلزل المكتب على إثر ضحكة من محمود صادقة، وكأن أنامل الكون قد تجمعت حوله لتدغدغه، وقال بعد ضحك طويل

- إنك تتحدث أيها الضابط وكأن أولادي دمى قد صنعتها بيديك، متناسيا أن الله قد خلقهم وتكفل بهم، فالله وحده هو الضامن، ثم أنني ما أزال أتعجب من جرأتك. كيف لك أن تطلب مني أن أخون ثقة الناس.
- هل أفهم من حديثك أنك ترفض العرض؟!
- لم أتعاون معكم يا حضرة الضابط وأنا مراهق حتى أتعاون معكم وأنا أكاد افتح باب الشيخوخة على مصراعيه !

تصنم الضابط مذهولا من حديث الكهل ، وتعجب كثيرا من جرأته وإصراره على موقفه، وإخلاصه لمبادئه، فأشار عليه بالخروج الفوري، فلم يعد بإمكانه أن يتحمل وجوده في مكتبه، فخرج محمود وقد ضجت دماء الشباب في روحه، وقل حجم رغيف الخبز

فـي عينـه، وأصـبح قوامـه ممشـوقا كمـا لـو كـان مراهقـا، والبسـمة لـم ترافقـه قـط، بينمـا قـد خـبط الضـابط مكتبـه بقدمـه، والحـائط بيديـه، وأصبحت حالته كمجنون يحتاج لجرعة مهدئة، أو دواء ينسيه محمود طـوال الحيـاة، وفـي تلـك الأثنـاء خـرج كتكـوت صـغير مـن إحـدى البيضـتين مقشـعرا فبحـث عـن أمـه لتمـده بـالقوت والـدفـء فلـم يجـدها حولـه، كمـا أنـه انتظرهـا طـوال المسـاء لكنهـا لـم تعـد، بينمـا قـد تمكـن الصرصـار مـن إيجـاد بيـت مهجـور فـي إحـدى زوايـا المكتـب وبـدأ بتشكيل عائلته.

النهاية

مبيت قومي

يفرضان علي رأيهما وكأنني طفل صغير أتلمس الخطى بيدي، ويجبراني على قرارات لم أتوقع أن أتخذها في حياتي أبدا، يقولان أنهما أدرى بمصلحتي، ومصلحتي تركن في زاوية أحلامي البعيدة، ومهما حاولت إقناعهما في السير نحو أحلامي لن يسمعاني أبدا، ولن يتقبلا قولي، فأنا شاب متهور لا أقدر قيمة الدراسة في الخارج.

" لن أهرب من الجامعة يا أبي، حتما سأكمل دراستي، لكنني لا أريد أن أدرس بالخارج"

" ما بك يا أمي تصدين عني؟! أعلم جيدا أن أبي يريد مصلحتي لكني أريد أن أدرس هنا، فأحلامي كلها هنا، أرجوك أقنعي أبي بالعزوف عن رأيه"

كيف لها أن تقنعه في العزوف عن رأيه، وهي تناصفه الرأي، تناصفه هجرة أحلامي والابتعاد عنها كذا ميل، من حقي يا ناس أن أدرس الموسيقى في إحدى الجامعات المحلية، من حقي أن أكون أشهر موسيقار في العالم. فلم علي أن أدرس الطب وأنا لا أرغبه، لم علي أن أضيع بضع سنين من عمري في مواجهة مصير اقتحم حياتي عنوة، لم علي أن أستمر طيلة حياتي في ممارسة مهنة الطب وأنا لها مكره.

" أعلم يا أبي أن الكثيرين يتمنون أن يحلوا مكاني ويدرسوا الطب في الخارج، لكني أريد أن أكون موسيقار"

" أمي، إن أبي يتهمني بالغباء، ويقول أنني شخص تافه ، هل أصبحت تافها لأنني اخترت الموسيقى؟! "

صدر قرارهما، وسافرت إلى الخارج لدراسة الطب، وأقسمت لأحلامي أنني سأعود، فلن أستسلم لرغباتهما حتى لو كانا أغلى ما في الوجود. حزمت أمتعتي وابتسمت لهما ابتسامة مؤقتة، فلن أغيب عنهما طويلا، سأسكتهما قليلا ثم أعود بحجة محكمة التدبير، حينئذ سيضطران لتنفيذ رغباتي!

ما أن وصلت العاصمة حتى احتضنت حقيبتي بشدة مثل أم ثكلى تحتضن صورة ولدها، وبحلقت بشوارع البلاد بعينين وحيدتين، وحاولت البحث عن فندق مؤقت أمكث فيه ريثما أنتقل في صباح الغد إلى المدينة التي تتواجد فيها الجامعة التي سأدرس فيها ثم أبحث عن بيت صغير بالقرب من الجامعة أشارك فيه زملائي في الدراسة، فاعترض طريقي أحدهم وسألته عن أقرب فندق وبالصدفة تبين أنه عربي ونصحني باللجوء إلى البيت العربي للمكوث فيه بالمجان، تبين لي فيما بعد أن هذا البيت قد أقيم من قبل هيئة عربية على أساس مساعدة المغتربين العرب وتوفير لهم المأوى المناسب لهم ريثما يتمكنوا من تأمين أنفسهم وتدبير أمورهم بأيديهم.

لقد وجدت نفسي كما أنني في بيتي، لقد كان تصميم البيت العربي رائعا جدا حيث أنه يشبه تصميم بيت جدي القديم لكن بحجم أكبر، كما أنني وجدت بساطة الشعب العربي في وجوه المقيمين، ووجدت الطيبة وهي تقتحم وجوههم وتبين لي أنهم ما يزالون يحافظون على هذه الطيبة كونهم لم يصافحوا الآيادي السوداء بعد، فشعرت ببرودة غريبة لم تريحني قط رغم وجود المدفأة بقربي!

بزغت شمس ناعمة من السماء تكاد لا تبين، مختلفة تماما عن شمسنا المعتادة، فأشعرتني أنني طفل غبي أتوقع أن السماء مليئة بالشموس الكثيرة، رغم أنهم نجحوا في تقسيم شمسنا لشموس صغيرة منذ زمن ليس ببعيد! وانطلقت في الباص متجها نحو جامعتي، لقد كانت الجامعة بعيدة كثيرا عن العاصمة، لذلك استغليت وقتي في تأليف مقطوعة موسيقية مزعجة!

يبدو الضباب الذي يكتنف سماء المدينة كأرواح بشرية معلقة في عمق السماء، تنظر إلى أهل الأرض بترقب تام، وتلحظ أحوالهم على الدوام، إني ألحظ الآن كومة ضباب تسخر مني لتضيع وقتي سدى، فخشيت على عيني من اقتحام عالم الضباب لذلك غصت في سبات عميق ريثما أصل . ترجلت الحافلة بثقة عالية، ومشيت بالشوارع بخلاف ما كنت عليه في العاصمة، فلقد منحت حقيبتي

فرصة التأرجح على ظهري أثناء تنقلي في المدينة، وهناك استفسرت عن موقع الجامعة بالضبط، وبعد صعوبة شديدة تمكنت من الوصول، لقد كان منظر الجامعة مخيفا، شعرت أنني في مقبرة مهترئة، وشعرت أن الموتى قد استنجدوا بأرواح العلم ليصيروا طلابا نجيبين، ضحكت عليهم استهزاءً، وذهبت لإنهاء إجراءات التسجيل، لقد كانت الخطوات مملة للغاية وتعجبت من المسجل حينما ابتسم في وجهي بصدق وقال لي بلغته مبارك، فابتسمت له بتصنع ومضيت بطريقي لأخوض عالم الطب.

تصفحت أوراق التسجيل أثناء ذهابي لسكن الجامعة، وتبين لي أن علي دراسة سنة تمهيدية وبعد ذلك سأتقدم لامتحان قياس مستوى وبناء على نتيجته سيتم اتخاذ قرار في مصير دراستي، فإما إن أستمر في الطب، وإما علي الالتحاق بأي تخصص آخر أقل صعوبة من تخصص الطب. هزت الابتسامة فمي بشدة وعانقت الموسيقى بعشق، فلا داعي أن أبرز موهبتي في تلفيق الحجج لأعود لبلادي، فالحجة أصبحت جاهزة!

استمتعت جدا مع الطلبة المتواجدين معي في السكن، فلقد تمكنت من التأقلم معهم بسرعة على اختلاف أصولهم وطبيعة تفكيرهم، فالموسيقى لغة مرنة بإمكان الجميع أن يفهمها، لقد كنت أتخيل الكلمات المنبعثة من أفواههم مقطوعات موسيقية تترنم في أذني بعذوبة، وقد كان يوسف من أكثر الطلبة قربا مني، فهو طالب تركي، قد جاء إلى هنا منذ سنة مضت ليدرس الطب، لقد كان يعشق الموسيقى كثيرا، واذكر أننا كنا نمضي ليال عديدة في العزف والغناء، وقد كانت تجمعنا اللغة الإنجليزية للتواصل، وكم تمنى صديقي أن يتحدث معي العربية بدلا من الإنجليزية، فهو يعشق اللغة العربية حتى الثمالة، لذلك وعدته أن أعلمه أساسيات اللغة العربية طيلة مكوثي هنا، لا أنكر أنه تذمر كثيرا حينما علم أنني لا انوي الاستمرار في الدراسة هنا، فكم بذل من جهوده ليقنعني في العزوف عن رأيي، لكن كيف لي أن أستجيب له والموسيقى تراقبني عن كثب.

أمضيت السنة برفقة يوسف، وتمكنت من خلالها الإطلاع على شخصيته الرائعة، فما أروع الصفات النبيلة والأخلاق الحميدة التي كان يحملها في جوفه، وكم تمنيت أن أتعلم منه ومن أفكاره التي تكاد تصافح المثالية من روعتها، لكن كيف لي أن أبقى وأتعلم منه وموعد رحيلي قد اقترب، كيف لي أن أصارع أحلامي وأبقى هنا لأتعلم الطب والفكر معا، فلقد خضعت لامتحان المستوى، وقد تعمدت الرسوب، لذا فقد حان موعد العودة!

سريت منذ الصباح الباكر، وحرصت على بقاء أصدقائي نيام، وخصوصا يوسف، فليس لي طاقة على تحمل طعنات الوداع، كنت أحزم أمتعتي في حقيبتي المتسخة والدموع تتدفق من صنابير عيني، وكتبت رسالة لأصدقائي أنني قد عزمت على الرحيل، فلعلهم يدعوا لي بالخير، ولا بد أن صديقي يوسف سيتذمر كثيرا، وسيغضب لأنني لم أودعه لكنه في نهاية المطاف سيقدر أنني صاحب مشاعر مرهفة.

ارتميت بعد عناء المواصلات بين أحضان البيت العربي، وأودعت تعبي مع زفير نفسي، وحرصت أن أجلس وحيدا مستعيدا ذكرياتي مع أصدقائي في السكن وخصوصا صديقي يوسف، فعقلي ما يزال يرقد في فراشه، حاولت أن أشغل نفسي عن التفكير بأصدقائي بالتسامر مع الأشقاء العرب الذين يتبادلون أطراف الحديث في مضافة البيت العربي. لكني لم أنجح بتاتا لذلك قررت أن أخلد للنوم.

في تلك الأثناء استلم صديقي يوسف رسالة تخصني من بريد الجامعة، وقد انبثق الأمل من عيني صديقي وتمحور في عمق الرسالة، فقد تأمل أن تأتي الرسالة بخبر يجعلني أكف عما عزمت عليه، وأواصل دراستي في الجامعة، فعلق آماله بحروف رسالتي واستعد أن يخوض مشوارا طويلا ليصل إلي حيث البيت العربي في العاصمة ، فكم سيتحمل صديقي من مشاق الطريق من أجل آمل يحدوه من بعيد، كم سيستغرق من وقته كي يصلني بالرسالة، كم برهنت يا صديقي لعالم الصداقة أنك انسان رائع لا مثيل لك.

وصل يوسف العاصمة حينما طرق الليل أبواب سمائها، وطرق باب البيت العربي حينما أذنت السماء لليل بالدخول، استقبله مدير البيت بلطف، وأرسله حيث غرفتي التي سأرقد بها هذه الليلة، لم يكفيني وجهي لرسم ملامح المفاجأة عليه، إنما قد استعرت شيئا من ملامح وجه صديقي حينما رآني في المكان الذي توقعه، ولم يبذل جهدا إضافيا في البحث عني وسط شكوك جعلته يكاد يفقد الأمل في اللحاق بي، حاولنا أن نجمد الوقت كي نتمكن من نهش أكبر قدر من الحديث، لكن الوقت لا يتريث لفرح فرحان ولا لحزن حزين، الوقت سيمضي رغما عنا، لذلك فتحت الرسالة وكشفت عن خلاف ما كان يتمناه صديقي، فقد كانت الرسالة مجرد رسالة عادية من والدي يطمئناني فيها على نفسهما، فأصاب الإحباط صديقي وجرده من آماله في استئناف دراستي معه، لكننا قررنا أن نمضي ليلتنا الأخيرة معا، ونتبادل أروع أحلامنا في حديثنا الأخير، وبدأنا بالفعل في بث موجات ضحكاتنا من أبراج محبتنا، وكادت أن تغطي البيت العربي بأكمله لولا أن قطعها مدير البيت في دخوله علينا، لقد كان وجهه مليئا بالاستفسارات المحرجة، لكن طبيعة عمله والأوامر التي استعبدته دفعته للنطق بها. فوجه حديثه لي واللطف يغمره

- معذرة عن المقاطعة، لكني قد جئت إليكما من باب المسؤولية وتنفيذ عملي على أتم وجه.

ابتسمت بصعوبة، وأعربت له عن إعجابي بتفانيه في عمله، فأردف حديثه وهو ينظر لصديقي يوسف بعينين غريبتين.

- هل سيقضي ضيفك ليلته هنا، أم أنه سيغادر؟!

تملكني الذهول من حديث المدير، وحمدت الله في هذه اللحظات أن صديقي لا يفهم لغتنا، رغم أنني تمنيت أن يتقنها في يوم من الأيام، لكن استفسار المدير لا يبشر بخير، سألته باستنكار:

- وهل تتوقع أنه سيبرح المكان في مثل هذا الوقت المتأخر.

- لكنك لم تسجله في السجل، وكما تعلم أن هذه مسؤولية، وربما أنك لا ترضى لي الأذى.

فاجأت الراحة قلبي، وتنهدت تنهيدة مريحة، وتبسمت لصديقي الذي بدا كطفل جائع يصيح بأعلى صوته وسط أناس صم بكم. فقلت للمدير بتفاؤل:

- إن كان هذا كل ما في الأمر، فسأتوجه حالا للسجل وسأقيد اسم صديقي.

ابتسم المدير بمكر بعدما أحبط تفاؤلي بقوة، وقال بهدوء وهو يشير على صديقي:

- لكني أراه يتحدث باللغة الإنجليزية، أم أنه عربي ويتحدث بغير لغته

بدأت العصبية تغوي قلبي، وتثير جنوني، فلم أجد مبررا لأسئلته وقلت له بحدة:

- العربي الأصيل لن يغير لغته دون أي مبرر، فأرجو منك أن تقول ملخص حديثك وتريحنا!

- أرجو منك ألا تنفعل، فأنت ضيفنا ولا بأس بك، لكني أريد أن أتأكد من عروبة صديقك.

كدت أفهم الأمر وخشيت من فهمي، وقلت بمماطلة:

- صديقي تركي وليس عربي.

تبين لي لاحقا أن المدير قد علم أن يوسف تركي الأصل وليس عربيا، وقد علمت أن من أهم شروط المبيت في البيت العربي أن يكون الضيف عربيا، فتعجبت أن يصدر مثل هذا القرار من عربي مثلنا، فالعروبة تنادي بالكرم وحسن استقبال الضيف، فقلت للمدير محاولا إقناعه.

- هل أصبح المبيت هنا على أساس القومية، ألا تعلم أن أصولنا العربية تفرض علينا احترام الضيف مهما كان أصله والحرص على خدمته وتلبية رغباته طيلة مدة ضيافته. هل تريدون أن تشوهوا تاريخنا عند الأعاجم بهذه التصرفات الغريبة.

- لا تحدثني عن نظريات وقصص الزمن الماضي، فلكل زمن قوانينه الخاصة به.

- ما هذا الهراء الذي تفوهت به، هل أصبح تاريخنا المتوارث بفخر مجمعا لنظرياتك، ثم إن الزمن لا يبدل قوانينه، إنما لكل زمان أناس يغيرون ويبدلون في القوانين، فلم تحاولوا أن تطمسوا العادات الحميدة في زماننا هذا.

- اسمع يا أخي، ليس لدي وقت لمجادلتك، لذا أرجو ألا تتسبب في طردي من العمل.

حاولت أن أقنعه بآخر جملة بما إنهم يبحثون عن شيء ما يجمعنا، فقلت له:

- لماذا تنظر للموضوع من ناحية قومية، ابحث عن قواسم مشتركة بيننا ستجد أن صديقي على ديننا والدين يجمع ولا يفرق.

تململت كلماتي في أحشائه وجعلته يتخبط خبط عشواء كما لو نفثت فيه سما ملعونا ولا أدري صراحة ما السبب في ذلك فخرج وقد أصر على خروج صديقي، فقررت أن أخرج مع صديقي فلن تسمح لي أصولي أن أدع صديقي يترك المكان وحده مهما كان الأمر، لذلك حزمت أمتعتي وأشرت على صديقي الخروج، فسألني عن السبب، وقلت له: " أنني أود قضاء ليلتي الأخيرة معه في شوارع العاصمة بدلا من النوم حيث أنه لم يبق لبزوغ الفجر سوى أربع ساعات" فلن أخبره أبدا عن السبب الرئيسي لخروجنا، ولن أجعله ينقص من قيمة العروبة في نفسه، فربما لن يتعلم اللغة العربية أبدا لو أنني أخبرته السبب الرئيسي.

وصلنا المطار سيرا على الأقدام، وقد أكل حديثنا الممتع مسافة الطريق بشراهة ، حيث أن الفجر قد غطى السماء بأكملها، وبدأت عصافير الصبح تخرج من مبيتها الرباني، فهي لم تذق طعم العنصرية ولن تتقبله بأي شكل بالأشكال، تماما كهذا المطار فهو يجمع كل الأطياف والأجناس، فلا يفرق بين الدين ولا الجنس ولا اللون ولا الأصل، باختصار لا يعرف معنى العنصرية، ففي هذا المطار بالذات قد أدركت معنى الحياة.

غول النمل

تدفق سرب النمل في الوادي العظيم كسيل أسود مرعب، ومضى القائد قدماً أمام أمواج النمل الهائلة متباهياً بجيشه الدؤوب، فلم يهزم هذا الجيش قط، وكل الحشرات تخشاه، حتى أن آكل النمل بجبروته لم يجرؤ على الاقتراب من الوادي خشية الوحدة التي تجمع أفراد النمل، حاولت الحشرات المتنوعة على مر العصور بمحاربة جيش النمل والسيطرة على الوادي بأكمله، لكنها كانت كل مرة تبوء بالفشل، وتجر أذيال الهزيمة وراءها حينما تضع كل حرب من الحروب أوزارها، فأصبح صيت وادي النمل العظيم يذاع مع موجات الريح، وحبات النوى، وتغريد الدوح، حتى أصاب الوهن قلوب الحشرات قاطبة، بينما قد أصاب الكبر قلوب النمل قاطبة، مما جعل شيخ من النمل قد أوتي علما أن ينبه القائد لخطورة الموقف، فقد يقضي الكبر على القوة العظمى، وقد يخلف الغرور عواقب وخيمة لن يتحملها جيش النمل، فتخر قوته وتنهار عزيمته، وبين لأفراد النمل كافة أن بداية سقوط الشيء هو الظن في عدم سقوطه أبدا، وإن بقي النمل يفكر بأن قواه لن تسقط أبدا فستأتيهم الهزيمة من أضعف المخلوقات وأحقرها!

استهزأ النمل بكلام الشيخ، ولم يلاق سوى الازدراء والتهميش، حتى قرر الشيخ الاعتزال والابتعاد عن الوادي، ففرح أفراد النمل بهذا الخبر، فلا مكان لأصحاب العلم عند أهل القوة، لكن القائد أمر بعودته على الفور خشية أن تستفيد الحشرات المعادية من علمه، وعرض أمره على حاشيته وأهل الشورى فتفاوتت الآراء، وتعالى دبيبهم.

" يجب أن يقتل، فهذا الشيخ يزرع الخوف في قلوب المقاتلين"
" انفيه أيها القائد في وادٍ منعزل، فلا مكان للجبناء بيننا"
" دعنا نقطع أرجله، ثم نلقيه على شوارع البشر، لعل أحدهم يدوسه بقدمه، ويكون عبرة لكل الضعفاء"
فكر القائد قليلا ثم قال بصرامة:
- آراء جيدة، سأدرسها اليوم، وسأوافيكم بقراري صباح الغد.
تقدمت نملة صغيرة ذات رأس حمراء، كان وادي النمل ينادونها بالحمراء نسبة للون رأسها، وقد كانت جميلة وذكية لذا فقد حجزها القائد ليضيفها لزوجاته ريثما تصل سن البلوغ، ومنذ ذاك الوقت أصبح كل النمل يحترمها ويسمع رأيها، فقالت للقائد بعذوبة:
- أليس فيكم رحيما، هل يستحق الشيخ كل هذا العذاب مقابل تهمة زرع الخوف في قلوب النمل؟! ربما أن سنه الكبير قد أثر على تصرفاته، لذا اجعله يحرس مستودعات الطعام ويدون كل ما يدخل إليها وكل ما يخرج منها، وبهذا يكون قد انعزل عن النمل فلا يؤثر عليهم برأيه، وسنستفيد نحن من علمه من خلال التدوين. فما رأيك؟!
صفق النمل المتعاطف مع الشيخ لرأي الحمراء، وأضاءت البشاشة وجه القائد، بينما قد فهم الشيخ تماما مبتغى الحمراء، فقد أثبتت للتو أنها إحدى طالباته المخلصات، فهي تريد أن تنقذه من الموت أو الطرد من ناحية، وتريد أن تتماشى مع مطالب حاشية القائد فتسكتهم باعتزال الشيخ عنهم من ناحية أخرى.
مرت الأيام ومكانة الحمراء ما تزال ترتفع شيئا وشيئا عند قائد النمل وجنوده، حتى جاء ذلك اليوم التي بدأت فيه العلاقة تميل للتوتر بشدة، فمنذ أن تسلم الشيخ مستودعات الطعام، بدأت الحمراء تخلو مع نفسها لتتأمل طبيعة الله وبديع خلقه وصنعه، حتى اكتشفت مؤخرا ظهور حفر صغيرة تعترض طريق النمل، فحسبتها في البداية أنها ظاهرة طبيعية، لكن اتساع حجم هذه الحفر وانتشارها في أرض الوادي بطريقة سريعة جعلها تتوجس خيفة من الأمر، فارتعدت مفاصلها خوفا وتعوذت بالله من خطر قادم.

مر موكب النمل من الطريق الرئيسي للوادي، والقائد كعادته يجذب بمغناطيس وجهه ملامح التباهي والتفاخر بقوة، وما تزال الاستعراضات العسكرية تزلزل الرمل من تحت أقدامهم وكأن أحد البشر قد تأفف في هذا الوادي، فغطت الرمال أفراد الموكب للحظات خاطفة، وحينما انقشعت سحابة الرمل ضحك القائد ضحكة قوية فرحا مما أحدثته قوة جنوده في الرمل، لكن الضحكة لم تلبث طويلا بسبب صراخ أحد الجنود، فقد اختفى صديقه الذي كان بجانبه أثناء اندلاع شرارة الرمل وذراته. حينئذ تفشت الفوضى في أرجاء الوادي بطريقة عجيبة، وأعلن القائد حالة الطوارئ في كل مكان، وأمر بتشديد الرقابة على حدود الوادي، وأقسم بخالقه أنه سيقطع الخاطف إرباً.

استيقظ شعب النمل في اليوم التالي على صراخ وعويل لم يعهد لهما الوادي مثيل، فاليوم قد افتقد النمل فردا آخر من أفراده، ولم يجدوا له أي أثر بعد عناء بحث طويل. أصاب الضجر القائد وكاد عقله أن يخترق حدود رأسه، وطلب تبريرا سريعا لما يحصل في مملكته وإلا سيكون مصير الجميع الهلاك، بدأ الجميع في البحث عن السبب، حيث خرج بعضهم إلى البلدان المجاورة لاستطلاع الأخبار، وشرع البعض الآخر في نصب المصائد على الحدود كي يقع فيها الخاطف حين دخوله الوادي، لكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل والنمل ما يزال يفقد فردا من أفراده مع مرور كل يوم. فتسلل الوهن لقلوب عامة النمل وبدأ كبريائهم يتقلص من أجوافهم شيئا فشيئا حتى كاد ينضب، مما جعل القائد يتنبأ بهلاك قادم لا محالة، فأسرع نحو الشيخ طالبا منه أن يحرص على الطعام ولا يخرج منها سوى الضروري فالخطر القادم يحمل برودة الشتاء وجوعه بين ثناياه، ارتسمت بسمة ساخرة على شفاه الشيخ وقال بتهكم:

- سيبقى الطعام في مستودعاته ولن تجد أحدا يتناوله.

ظن القائد أن الشيخ يطمئنه بهذا الرد الغريب بينما كانت جملة الشيخ تبطن في داخلها رصدا حقيقيا لمستقبل وادي النمل. لذا فقد استدعى شيخ النمل الحمراء وطلب منها أن تكتشف سر فقدان النمل

الغامض، فهو يثق بها كثيرا، ومتيقن أن العلم الذي زودها به لن يضيع سدى، كما انه أكد للحمراء أن الخطر يكمن في الداخل وليس الخارج وعليها أن تكشف السر بفطنتها. أطلقت الحمراء عقلها للريح وبدأت تتسارع في البحث، وبحثت في ذاكرتها طويلا حتى تذكرت الحفر الترابية المفاجئة. أسرعت حيث موقع الحفر فوجدتها قد اتسعت طولا وعرضا فضلا عن جدرانها الملساء التي قد ملست بفن مبهر للغاية، دققت الحمراء بصرها في عمق إحدى الحفر فوجدت فيه بقعة سوداء وعلمت أنها من بقايا أشلاء نملة، وبحذر شديد مدت قدمها نحو جدار الحفرة، فوجدت أن قدمها قابلة للانزلاق ويصعب على النمل المنزلق أن يتحكم في حركته عند سقوطه في الحفرة، فعرفت على الفور أن الخطر قادم من أسفل الحفرة وأنه يوجد شيء ما في الأسفل يخطف النمل ثم يلتهمه.

هرعت النملة نحو القائد وحاشيته وأخبرته بنتيجة ما توصلت إليه، فغادرت مع وزير القائد لتريه الحفر تاركة الملأ خلفها يغرقون في دهشتهم وحيرتهم منتظرين عودة الوزير ليتحققوا من صحة الخبر، لكنهم لم يلبثوا برهة حتى عاودتهم الدهشة من جديد حينما رأوا الحمراء تعود إليهم وحدها تلهث بشدة، والرعب قد بدا يتجلى على وجهها بوضوح، فسألوها بحزم عما جرى، فاقتربت من القائد وركعت عند قدميه قائلة بحرقة:

- ليتك أيها القائد تستدرك الأمر وتنقذ وادي النمل مما حل به.

فتح القائد عينيه على وسعهما وحدق بالحمراء منتظرا منها أن تستأنف حديثها المرعب، فانهمرت الحمراء بالبكاء، وبدأ صوتها يرتجف بوضوح، فمنظرها ينذر بخطر كائن في وادي النمل، حاولت أن تلتقط أنفاسها بملقط صبرها وقالت بهدوء غارق بالشجن:

- لقد رأيت ما عجز عنه الإنسان في الفتك بأعدائه. لقد ذهبت أنا والوزير لمكان الحفر وحينما شاهد البقعة السوداء في الحفرة، ضحك ساخرا ونعتني بالغباء، وقال أن هذه خرافة من خرافاتي لأرعب فيها النمل، وأكد انه من السهل أن يخرج النمل من هذه

الحفرة إن سقط فيها، فرمى بنفسه في الحفرة ليبرهن لي بأنها وهم، وحينما سقط برز كائن رمادي حجمه في حجمنا وبدأ في غرز فكيه في مؤخرة الوزير والعجيب أن الوزير حينما كان يلتفت لأسفل الحفرة يختبئ الجبان في حفرته وحينما يحاول الوزير الصعود يخرج إليه الغول من جديد ويبدأ في سحبه للأسفل دون أي مقاومة من الوزير لأنه كان قد بذل جهدا في محاولة الصعود لكن الجدران الملساء قد أعاقت حركته.

ما أن فرغت الحمراء من حديثها حتى سيطر الضحك على الجميع، ولم يتمالك القائد نفسه أيضا من شدة الضحك، وأجمع أغلبهم أنها تمازحهم أو أنها تريد أن تشهر نفسها في دنيا الحشرات ليهابها الجميع، طلبت الحمراء من القائد وحاشيته أن يذهبوا للموقع لعلهم يجدوا شيئا ما يثبت مصداقيتها، لكن القائد رفض طلبها بناء على اقتراحات مشاوريه حيث قالوا في شأن الحمراء.

" ما هذا الهراء الذي جاءتنا به الحمراء، قد تكون هذه الحفر من ظواهر الكون الطبيعية"

" لو كانت هذه الحفر خطيرة بالفعل لحدثنا عنها أجدادنا من قبل"

" الإنسان بجبروته يعجز عن صنع ما تتحدثين عنه"

وبدأت تنهال الأقاويل التي تكذب حديث الحمراء فحاولت أن تدافع عن كلامها أمام القائد فاقتربت منه وتكلمت بكلام يتخلله الحنان:

- فكر أيها القائد بكلام حاشيتك بعقلك، لا تنظر إلى الأمور بعين القوة فحسب.

وأمسكت بيدي القائد بإحكام وأردفت حديثها قائلة:

- إن كلام الأجداد ليس مقدسا كي نأخذ به على الدوام، ولا يعني إن لم يحدثونا عن شيء ما من قبل أنه غير موجود، إن هذا الكائن كإبليس يبني بيته بدهاء ليفتك بنا نحن معشر النمل إنه تماما كغول حكايات البشر، أيها القائد ألا ترى أن الطير يبني عشا في غاية الإتقان، كما ان الإنسان قد عمر في الأرض وقضى على طبيعتها بكل

قوته، أتصدق كل هذا ولا تقول انها ظواهر طبيعية ولا تصدق حفرة غول النمل وتقول أنها ظاهرة طبيعية.

بدأت علامات الاقتناع تقترب من عقل القائد لولا أن تصدى لها أخ القائد بخبث ومكر، فقال أحدهم:

- هل ستصدق أيها القائد كلام الحمراء، ألا ترى أنها تتقول عليك الأقاويل وتنقل لك خيال البشر لتبعدك عن الحقيقة التي لم ينتبه لها أي واحد منا.

تكهرب معشر النمل وبدأوا يركزون سمعهم لحديث أخ القائد باهتمام فأردف حديثه حينما تأكد أن الجميع يسمعه.

- أخي القائد ألم تسأل نفسك أين ذهب الوزير، لقد قتلته الحمراء وبدأت تحبك قصة غول النمل هذه لتغطي حقيقة قتلها للوزير بأكنة الدهاء الخبيث.

صعقت الحمراء لما سمعت وحاولت أن تدافع عن نفسها لولا أن تعالت أصوات النمل المؤيدة لكلام أخ القائد، وطلبوا من القائد أن يقتص للوزير ويقتل الحمراء، كما طلبوا منه ألا تأخذه بها رأفة كونها خطيبته، فلا بد أنها قتلت الوزير لأنه من أشار على القائد بخطبتها. إلا أن القائد قد حكم عليها بالسجن المؤبد لعدم اكتفاء الأدلة، فحبست الحمراء لأعوام في أحد أنفاق الوادي، وكان النمل في تلك الأعوام يتناقص شيئا وشيئا، حتى انقضت أعواما عديدة وأزمنة مديدة وتلاشى وجود النمل نهائيا حتى أن الحارسين اللذين خرجا ليعرفا مصيرهما بعد هلاك القائد لم يعودا أبدا فآن الأوان لتعانق الحمراء وادي النمل من جديد، لكنه كان فارغا من الناس فقد اختفت قوة النمل الهائلة التي سيطرت على الحشرات قرونا طويلة، فقررت الحمراء أن تخوض مغامرة تمنت من شعبها أن يقوم بها قبل أن يذهبوا ضحية جهلهم وعنادهم وهلاكهم على يد غول النمل، فاتجهت إلى حفرة الغول الرئيسية وأمسكت قشة في مقبضيها وحركتها في كثبان قعر الحفرة فظن غول النمل أن نملة أخرى قد سقطت في حفرته فأخرج رأسه من بين الكثبان للاستيلاء على ضحيته فأسرعت الحمراء في

مغامرة وضعتها بين احتمالين إما النجاة وإما الموت، لكن قوة إرادتها جعلتها تنقض بمقبضيها على رأس غول النمل وبدأت تنهش فيه حتى خر ميتا، فتسلقت القشة وخرجت من جديد لدنيا خالية من الخوف من جهة والجهل من جهة أخرى، فبحثت حولها عن بني جنسها لعلها تطمئنهم فلم تجد أي أحد من شعبها، لذلك توجهت نحو شيخ النمل لعلها تتزوجه ويعود النمل يتكاثر من جديد، لكن منية الشيخ كانت أقرب من حلمها في التكاثر، لذلك بقيت تعيش وحدها في الوادي العظيم منتظرة منيتها عما قريب.

النهاية

بصمات على شاشة العصر

تلاعبت حروف الحكاية بملعبهما.وجعلت من كلاهما الخاسر،رغم أن هذه النتيجة غير مطابقة لقوانين اللعب.إلا أن واقعهما المتواري خلف شاشة العصر قد شهد لهما بمقدرتهما الرائعة على اختراق ما لا يخترق.

أسند ظهره إلى كرسيه، وعلى طول امتداد قدميه أرخاهما تحت الطاولة الحاملة لجهاز العصر، وبكلتا يديه بإمكاننا ملاحظة تهيؤ أنامله المثقلة بهموم ما يدور بالخلد للنقر على لوحة مفاتيح الجهاز.وبالنسبة لعينيه فمركزهما بات يتمحور ببؤرة شاشة العصر. فالرائي لحالته من قريب يجزم ببراءة ما سيصنع، أما المدقق من بعيد فبإمكانه أن يصف هذا الثلاثيني بمدمن تكنولوجيا العصر.

لم تكن حكاية محمود سوى حكاية رجل كرس جهوده للعيش في ظل عالم سحيق،أعطاه أقل مما ينوي هذا الرجل أن يقدمه للعالم من قيم، وأفكار، وصفات نافست الطيبة بطيبة تصرفاته.إلا أن عالمه يأبى إلا أن يتجرد من ثوب محمود، يأبى إلا أن يعيش خلف تيار الوهم الذي اندفع لحياة البساطة التي تحتل بيئة محمود ومجاوريه.

أي إنسان هذا الذي تشكل من عجينة ممزوجة بمكونات المثالية المستحيلة التي باتت شيئا يستقر في قعر أحلامه، ليضمحل ماؤها باضمحلال قيم من حوله،ف تغدو العجين طحينا رأس ماله فقط نفخه من المراوغين، فيتلاشى في سماء مثالية محمود، وتتبعثر مكوناته مشكلة حروفا تتشكل في مخيلة محمود مجرد ما رفع رأسه للسماء مستنجدا بالله، أو هاربا من حقائر مندثرة تراكمت على صفحة المجتمع.

الصمت الملازم على شفتيه، كان يتسلسل بمهارة فذة إلى عقول المحيطين، ليبدأ السيلان العصبي بإيصال أمر الحيرة لها، فتحتار عقول المحيطين بمدى قوة تماسكه اتجاه عراك الحياة، فلا ضنك يؤرقه، ولا هم يداهمه، ولاصراع يعتريه.هذا بالنسبة لهم لكن بالنسبة

لي فإني أخال نفسي صاحب بصيرة ثاقبة ورؤية نافذة لأحوال الناس وبالنسبة لشخوص الآخرين فهذه لعبتي فأنا-وأعوذ بالله منها!- الأقدر على استئصال ما في أعماق هذه الشخوص.الأقدر على تحليل ما يدور في الخلد، الأقدر على استنباط الكل من جزء التقطه من عفوية الشخصية الصارمة الصامتة.

الشيب الذي أحدث البياض على شعيرات وجه ورأس محمود، لم تأت من فراغ، والوراثة قد غسلت يديها منه، والخريعة التي تقال في الروايات بعيدة كل البعد عنه ،أما اذا طابق واقع هذا الشيب ما يدور في صمت إحساسي الآن إذا لأصبحت فعلا صاحب قدرة فذة على التحليل والتفسير.

ملازمتي القليلة له كزميل، لم تسمح لي بتجاوز حدود السؤال التعارفي، وعمري المتصاعد على عتبة العشرين لم يسمح لي بطرق أبواب الثلاثين بهذه السهولة فلزمت احترامي لذاتي واكتفيت بأن أملي سطوري بما التقطته منه من كلمات مبعثرة هنا وهناك وبما جادت به قدرتي على التشخيص فأكون بهذا أول شاهد بحكايتي هذه على مدى عمق صمته.

ذات يوم وكسبيل لبداية رحلة تعارفية ما بيني وبينه سألته عدة أسئلة ، تلك الأسئلة المتعارف عليها في عالم التعارف فكانت إجابته واضحة ومختصرة تكشف عن حقيقة صمته باختصاره ،وشدة احترامه للطرف الآخر بإيضاحه، وبقيت حاملا هذه الفكرة عنه طيلة مشواري التعارفي حتى وصل بي قطار أسئلتي إلى محطة السؤال الأخير والذي به أطال على غير ما عهدته عليه، وكأنني قد وضعت يدي على جرح دفين لم يبرأ من نزيفه إلا بعد مكث من عناءه.سألته ما السر الذي يكمن خلف اسمك المستعار الذي تستخدمه أثناء تواصلك مع معارفك على صفحة التواصل الإجتماعي والذي يدعى"الصامت الحزين" فكانت إجابته مطولة مرونقة بزخرفة فنية تدل على مدى علو احساسه وبهائه.فأصبح لسان حاله يصافح الحزن بعينه أثناء إجابته.

لمست من خلال إجابته بأنني ذلك الأخ الموالي الذي سيفتح لي بوابة قلبه ليبدأ بالحديث معي عما يؤرقه وعما يحبس كلماته وأحاسيسه ليجعلها صامتة ضمن اطار الكلمات،لا أدري ما نسبة هذا الإحساس لكني أشعر بمدى قوته، فابتسمت بداخلي بسمة صامتة منحتني ثقة كانت بعيدة عن خيالي.وعلى اثر هذه الابتسامة قلت له."

- سأكون عند حسن ظنك بإذن الله.

تركته بعد كلماتي تلك بحاله،وأنا لذاتي محترم،ولحدودي غير متجاوز،ولرغبتي بالمساعدة متلهف.تركته وأنا واثق بأنه سيحدثني في اليوم التالي بما لم يحدثه لغيري.فإن كان الأمر مقتصر على الغد.فهذا مقدور عليه،فإن الغد قريب.

****

تجمعت حروف الحكاية بمجمعهما.وجعلت من كلاهما العاشق، رغم أن هذه النتيجة غير مطابقة لقوانين العشق.إلا أن واقعهما المتواري خلف شاشة العصر قد شهد لهما بمقدرتهما الرائعة على اختراق ما لا يخترق.

أسندت ظهرها إلى كرسيها، وعلى طول امتداد قدميها أرختهما تحت الطاولة الحاملة لجهاز العصر،وبكلتا يديها بإمكاننا ملاحظة تهيؤ أناملها المثقلة بما لا يفهم للنقر على لوحة مفاتيح الجهاز.وبالنسبة لعينيها فمركزهما بات يتمحور ببؤرة شاشة العصر. فالرائي لحالتها من قريب يجزم ببراعتها بما ستصنع،أما المدقق من بعيد فبإمكانه أن يصف هذه العشرينية بمللها إزاء تكنولوجيا العصر.

لم تكن حكاية سارة سوى حكاية فتاة كرست جهودها لأن تعيش في ظل عالم الكلمات،أعطاها أقل مما تنوي هذه الفتاة أن تقدمه للعالم من لغة، وإبداع، وتصوير نافست الفن بفن تصرفاتها.إلا أن عالمها يأبى إلا أن يتجرد من ثوب سارة، يأبى إلا أن يعيش خلف تيار الوهم الذي اندفع لحياة الثمالة التي تحتل بيئة سارة ومجاوريها.

أي إنسانة هذه الذي تشكلت من عجينة ممزوجة بمكونات الكلمات العاجية التي باتت شئ يستقر في قعر أحلامها،ليضمحل

ماؤها باضمحلال لغة من حولها،فتغدو العجين طحينا رأس ماله فقط نفخه من المراوغين فيتلاشى في سماء كلمات سارة،وتتبعثر مكوناته مشكلة حروفا تتشكل في مخيلة سارة مجرد ما رفعت رأسها للسماء مستنجدة بالله، أو هاربة من حقائر مندثرة تراكمت على صفحة المجتمع.

السحر الملازم على شخصها، كان يتسلسل بمهارة فذة إلى عقول المحيطين، ليبدأ السيلان العصبي بإيصال أمر الحيرة لها فتحتار عقول المحيطين، بمدى قوة إثبات وجودها من بين زحام الحياة، فلا شخص يحرجها، ولا كلمة تحبطها، ولا مشكلة تعجزها.هذا بالنسبة لهم لكن بالنسبة لي فإني أخال نفسي صاحب بصيرة ثاقبة ورؤية نافذة لأحوال الناس وبالنسبة لشخوص الآخرين فهذه لعبتي فأنا-وأعوذ بالله منها!- الأقدر على استئصال ما في أعماق هذه الشخوص.الأقدر على تحليل ما يدور في الخلد،الأقدر على استنباط الكل من جزء التقطه من عفوية الشخصية المرحة المتكلمة.

الكلمات التي أحدثت ما أحدثت من محبة ترسمها سارة على وجوه محبيها لم تأت من فراغ، والوراثة قد غسلت يديها منها، ووحي الأدب الذي يقال في الروايات بعيد كل البعد عنها ، أما إذا طابق واقع هذه الكلمات ما يدور في صمت إحساسي الآن إذا لأصبحت فعلا صاحب قدرة فذة على التحليل والتفسير.

ملازمتي المعدومة لها كزميل لصديقها، لم تسمح لي بتجاوز حدود انتظار ما سينقله لي زميلي كما أتوقع، لكن بعمري المتصاعد على عتبة العشرين والقريب من عمرها سيسمح لي بطرق أبواب الاستنتاج بهذه السهولة فلزمت احترامي لذاتي واكتفيت أن أملي سطوري بما التقطته من زميلي من كلمات مبعثرة هنا وهناك وبما جادت به قدرتي على التشخيص فأكون بهذا أول شاهد بحكايتي هذه على مدى عمق فضولي.

بالنسبة لها فقد كانت أكبر من حلم قد تحقق على ساحة المثالية المرجوة، وأقوى أنثى قد تخترق بحور الأدب بقارب نقي يلفت أنظار

من يتطلعون إلى المثالية بحدب، أناملها الخفية قد جعلت من الحروف كلمات منمقة باهرة تبطن بداخلها مفعول سحري يتسرب إلى قلوب الطيبين بفن غريب عجيب لم يعهده عالم السحر من قبل، وشاشة العصر تشهد لها بأنوثة طاغية تحتل عقل من يعرفها بأسلوب لبق تجاوز حدود المسموح إلا أن صاحب العقل لم يعد يعرف التمييز ما بين المسموح و ضده ، كلماتها المنسابة على صفحتها على موقع التواصل الاجتماعي، تمكنت بغراء متين أن تلصق بصماتها على شاشة العصر، فتغدو "سارة" صاحبة الكلمة الأولى في عالم ذلك الموقع، ويصبح قارئها صاحب اللهفة الشديدة لانتظار كل جديد من هذة الأنثى.

الأسلوب المنمق، والإحساس الرفيع، والأدب الجم، والجمال الخفي، والضحكات التي بموقعها، جعلت منها صيادة لقلوب طيبة تتطاير ببراءة على علية صفحات الموقع، فتتراسم بسمة سارة - والتي لم أرها ولم أعرف صاحبتها على شفاهها المندية- كما إنها واثقة من مهارتها على الصيد متجاهلة أن هذه القلوب ما زالت تتأرجح ببطء في عالم الطيران.

ربما من خلال عفويتي بكلماتي عن سارة قد تراسمت في الذهن صورة عن سارة مفادها أن سارة انسان مستغل، صياد مختال. وربما لي تبريري لجرأتي في هذا الوصف وذلك لأنها تمكنت من خرق حاجز الصامت الحزين، وجعلت بأسلوب خفي من صمت محمود قاموسا من الكلمات ليبوح لي بحكاية عشق خفية تشكلت أحداثها خلف شاشة العصر.

وأقبل الغد المنتظر، وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن يثور بركان محمود الصامت ويخرج من عمق لسانه فيتكلم، يتكلم بمقدار الإخاء الذي فرضه علي، بمقدار محبتي له والتي وازت محبتي لأخوتي فأعده أحد اخوتي الكبار أنتظر منه رشفة من مشاكله لأهرع له بالمساعدة، لكن أيا من هذا لم يحدث، وما رسمته في داخلي من حسابات وتخيلات اندثر في سيل المهملات بداخل نبضي. الذي حدث

فقط شجار كلامي حدث في قاعة الزمالة بمكان عملنا، فزملائي يتناقشون حول شاشة العصر بشكل عام وبشكل خاص حول شخص سارة المختفية خلف شعار "عاشقة الكلمة" على موقع التواصل الإجتماعي. فليس غريب أن تكون سارة هي موضع الحديث، فصفاتها السابقة كافية لتبرير ما يحصل، وبالنسبة للزملاء فكان كل واحد منهم يحمل صورة لسارة مختلفة عن الآخرين، فمن بين معجب، وحاسد، ومستغل تتنوع الصور والكل يضع بصمته على شاشة العصر. إلا أنني من بين الزملاء لم يستدع انتباهي سوى الصامت الحزين أقصد الزميل محمود. فقد كان مغاير للكل ملتزم الصمت لإبداء رأيه بسارة، كنه ثائر للقول، محدث للشجار. من ناحية أنه يريد اسكات الجميع وإنهاء سيرة سارة، فسارة ليست موضع حديث يجب أن يتكلم به.

بالنسبة للزملاء فكل واحد منهم التزم صمته،ولم يعاودوا الحديث بخصوص سارة، نزولا عند رغبة زميلهم محمود من باب أنه شخص ملتزم، وصاحب مبادئ، وأن مبادئه تعترض على استضافة أي عنصر نسائي أجنبي على صفحته، ولهذا لا يليق بهم أن يتحدثوا عن صديقة داهمت صفحاتهم على الموقع أمام زميلهم المتحفظ.

هذا بالنسبة لهم وهم أحرار بتفكيرهم، لكني كملاحظ ومدقق جيد بالأمور فلي لعبتي الخاصة، ولي رأيي الذي ينبع من وراء ملاحظاتي ودقتي في الأمور فلا شيء من عبث، ولا عبث من فراغ.

حمرة عيناه أثناء الحديث لم تأت من عبث أثناء الإتيان بسيرة غير محمودة لسارة من قبل أحد الزملاء، وعبثه بأدوات ما على طاولته كشخص غير مبالي أثناء الإتيان بسيرة محمودة ومادحة لسارة من قبل زميل آخر لم تأت من فراغ.

إن أو احدى أخواتها دخلت في الموضوع والموضوع ليس موضوع تحفظ أو التزام .الموضوع يخفي بين طياته حكاية.وهذه الحكاية هي حكايتنا هذه، حكاية محمود وسارة،حكاية الكلمة

والصمت، حكاية المثالية والأدب، حكاية العشق المتواري خلف أطلال الوهم.

ألا تريد أن تخرج تلك الكلمات من بين صمت شفاهك، أم أنك مصر أن تمرمر فضولي بتيهاء الكتمان، مشكلتي باتت يا خلي أكبر من موضوع فضول، انما تجاوز حدوده وطرق باب الأخوة بقلبي، وصمتك يثير شغب جوفي يجعله يتمرد على كياني كطفل يحملق بالكسل بنظرات تهكم. وإن كان الموضوع الأعوام العشرة التي تفصل ما بين عمرينا فهيا يا قطار العمر عجل من مسيرك قرب بعمري لعمره وثبت عمره بعتلة الأيام. ولتخرج تلك الكلمات ولتبدأ عقدة الحكاية.

وضعت يدي على خدي حتى سرى مفعول التخدير اللاإرادي بها، فعطل مصدر الإحساس بها وتسلل إلى عيني حتى باتتا تلاحقان تصرفاته وحركاته أيضا بشكل لاإرادي حتى غدت عيناي تراقبان ما يفعله ذلك الصامت، وكأنهما فأران حقل يحملقان بفريسة قمحية متناثرة هنا أو هناك فلا يجدان.

جاءت عيني بعينه،وحان موعد الفهم الصامت، لتظهر بسمة طفيفة خجلة من التطفل على شفاهي البائسة، ليردها لي بضحكة تصحبني معه ليبدأ بالحديث، هو يتكلم وأنا لست بمصدق إن كانت أذني تسعفني أم أنها تخونني، هل يعقل أن الصامت قرر أن يتحرر من صمته ويبح لي بما سأملي به حكايتي هذه، أم أنه سيبقي على الغموض مكتنفا لعناصر حكايتي فلا تكون الحكاية حكاية ولا يكون للمكان مكان ولا للزمان زمان وبالنسبة للعقدة فلتصل إلى ذروة تأزمها في عالم الغموض ذاك.

...وحان موعد قطاف الدموع، وقد أذن سجانها بالتحرر،لكن ما ذنبي أنا كي تتحرر على دوري أم لتبقى تعذبني كوني أنا قاطفها، لكني برغم ذاك الأسى الذي أحدثته لتلك العيون الصامتة إلا أنني قد شعرت أنني تفوقت على الانجاز بحد ذاته وأنني قد أذنت لجزء من صمته المتمكن أن يفيض عبر دموع مريحة، مريحة للغاية.

لـم أدر بـأي تصـرف سأتصـرف إزاء دمعاتـه، وبـأي حـال سـأواجهها، لـم يكـن بوسـعي إلا أن أقـف أنـا الآخـر صـامتا فيغمرنـي صمته بحنانه ويمنحني حق الصمت، درت حول نفسي عدة دورات، أطبقـت راحتـي علـى جنبـي بقـوة، تلفظـت أنفاسـي البائسـة بعنـف، وودعت المكان وأنا سجين لعنة الفضول، شاتما حق الأخوة المفاجئ. فقررت أن أطلع على صفحة سارة لعلي بخبرتي على جهاز العصر أن أعلم موقعها ومكان سكنها أو أي وسيلة اتصال تمكن صديقي محمود من التواصل معها، فاكتشفت أخيرا بعد عناء البحث وبطريقة خاصة أن سارة ليست سارة وأن أنوثتها قد استقرت في عمق الوهم، لقد تبين لي أن هناك شابا يكن بالكراهية لصديقي محمود قد انتحل شخصية سارة الوهمية وبدأ في خداع قلب محمود الطيب، لذلك طلبت من ذلك الشاب المخادع أن يحذف صفحة سارة من موقع التواصل الاجتماعي للأبد وإلا سأكشف أمره أمام كل من يعرفه، وبهذا قد اختفت سارة من حياة محمود للأبد، وبالنسبة لصديقي فعليه أن يتحمل ألم الفراق قليلا خيرا من أن ينصدم قلبه الطيب وتختفي الثقة من داخله.

النهاية

قبلة على الخليج

أحب الصيد، أحبه لدرجة أنني أقضي ليلي مع نهاري على الخليج، فأكون بصحبته حكايات شتى تجمع ساعات متناقضة ما بين قرية السعادة ومدينة الشقاء، تماما كأمواج البحر المتلاطمة أمامي فهي تتناقض مع بعضها من خلال تعاركها الغبي، فتترك في قلبي صدى له معنى خاص بي لا يشاركني أحد في فهمه سوى صنارتي هذه، والتي مهما حاول الزمان أن يفرق بيننا حتما ستبوء جميع محاولاته بالفشل.

رحلتي اليومية مع الصيد شكلت عندي معرفة تامة عما يجري على الخليج، أعرف الآيب والقادم، الزائر والمقيم، مسقط الأتراح وجالب الأفراح، وغيرهم الكثير باستثناء العشاق، فعندهم يتوقف عداد الفهم عندي بالعد، ففي عيونهم رموزا يتخاطبون بها لا أقدر على فهمها، فهم الوحيدون الذين يثيرون عاصفة صخبي، فهلموا لي يا أهل الهوى بعقل عاشق يعينني على فهمكم!

في الخليج يحلو اللقاء للعشاق، فهم يأتون بشكل شبه يومي للخليج لصقل عشقهم على رمال شاطئه، وقد كانت خيوط التعقيد تسبك حول العاشقين عصام ونورة. فقد احتلا أعلى مراتب عدم الفهم عندي، ولم أستطع تحليل شخصيتهما بالرغم من براعتي في هذا المجال، إلا أنني وجدت فيهما شيئا غريبا لا يوجد بين أي اثنين على الإطلاق، حينما يشبكان يديهما معا كعش صغير تنبع قوة حبهما من عينيهما، وتفيضان على دنيا العشق بزمزم عذب، كانا يشدان أيديهما بقوة لدرجة أنني حسبتهما ستفلتان من ذراعيهما وتهربان بعيدا مع أمواج البحر الصاخبة، كانا يلتقيان دائما قبيل المغيب، لقد كان منظر الغروب عند لقائهما يشبه حبهما، وعندما تسقط شمس الأصيل أشعتها الذهبية على سطح البحر يزداد الشفق احمرارا لا لظاهرة طبيعية سيطرت عليه إنما خجلا من قبلة قد أحدثت للتو وما تزال تنعم بدفء عاشقين مولهين بحب بعضيهما.

كنت أتمنى ألا يدفعني فضولي الزائد للتسلل إليهما وأختلس السمع لحديثهما فأكون قد قللت من احترامي لذاتي، لكن لعنة الفضول قد فصلت الذات والاحترام عن بعضيهما ولم تسعفني أمنيتي في تمالك نفسي كيلا أتصنت على حديثهما، سرعان ما وجدت نفسي مع صنارتي بالقرب منهما، تظاهرت بالصيد وأذناي مرميتان على أرصفة شفاههما ، فلم يعد لأذني أي علاقة برأسي سوى تلك السيالات العصبية التي تمدني بفهم ما أسمع من كلام العشق، لقد كانا يقسمان ألا يبتعدان عن بعضيهما نهائيا ومهما شكل الزمن أمامهما من عوائق. لا أدري لماذا شددت قبضتي على صنارتي عندما سمعت أيمانهما مع إني أعجبت كثيرا بحرصهما على عشقهما لهذه الدرجة.

ما يزال تناقض أمواج البحر المتجسد في التلاطم العشوائي يؤثر على الحالة النفسية للعاشقين عصام ونورة. دموع مريرة تنساب على وجنتي كل واحد منهما مجرد ما مر هاجس الفراق من خلفهما، ولحظات سعيدة تصحبها ضحكات بريئة عندما يمر هاجس البقاء أمامهما. تماما كضحكات الخليج حينما يزداد عدد زواره من العشاق، تكاد شمس الأصيل أن تأفل وهنا لا يوجد إلا العاشق عصام، "لكن أين نورة؟!" سألت مستودع أجوبتي بتعجب لكنه لم يجبني، فأغلقته للأبد وتوجهت لمستودع التخمين، لعلها ستتأخر لظرف ما قد ألم بها، أو ربما أنها تريد أن تشغل قلب عصام عليها قليلا، لترى وهج العشق وهو يسطع في شمسي عينيه. استمر تفكيري في تخمين أسباب غياب نورة غير المعتاد، فلا يعقل أنها لن تاتي وخصوصا أن كل لحظة تجمعها مع عصام تضيف لعمرها يوما جديدا فلا أعتقد أنها ستبخل على نفسها المزيد من الحياة، حتى قطع تفكيري ذلك الصراخ، يا لهول ما أرى، إنها فتاة تغرق وتستنجد بحرقة، هممت للركض إليها لنجدتها، لكن عصام سبقني لذلك، فلم يكن على الخليج في هذا الوقت سوى ثلاثتنا، تراجعت بخطواتي قليلا للوراء، وازدادت قهقرتي كلما اقترب عصام مع الفتاة التي أنقذها إلى الشاطئ، وضعها على رمال الخليج برفق فانسدل شعرها الذهبي على الرمال مشكلا صورة فنية

رائعة، لم تستطع الفتاة الغريقة الحراك، فقد كان مغشيا عليها، وحاول عصام إسعافها وإخراج السوائل من رئتيها لكنها لم تستجب لهذا النوع من الإسعاف، لذا لم يبق هناك سوى طريقة واحدة لإنقاذ هذه الجميلة من سجن الموت، فبقبلة عميقة سينقذها، أقصد بنفخة واحدة سينقذها، فلا بد أن يجري عصام لها تنفسا صناعيا وأخاله انه بدأ بتنفيذ الواجب الإنساني حالا، وهاهي أنفاس عصام تدب الحياة في جسد العريقة، وبدأ قلبها ينبض من جديد، وبدأ نبضها يسير بشكل طبيعي لتصافح الحياة مرة أخرى، بينما كانت الحياة نفسها تريد أن تبعد عن فتاة أخرى وتطردها منها نهائيا، فقد جاءت نورة للتو وقد رأت بأم عينها عشيقها عصام وهي يقبل فتاة أخرى على رمال الخليج التي نسجوا عليها أجمل قصص عشقهما، فأقفلت تاركة وراءها قلبا بريئا لا يعي ما يجري له، حينئذ بدأت أمواج البحر تتلاطم بقوة، وكأنها تتأسف على القادم.

يوم ويومين وتتزايد الأيام وعصام وحده على الشاطئ، ولا أثر لنوره! قصد الذهاب لبيتها ليعلم الحكاية، فركضت بكامل قواي إليه، وفي منتصف الطريق حدثته بالحكاية فأكمل طريقه وكأن عقله قد طار من رأسه فغدا كالمجنون، وصل بيتها ولم يجدها فضرب الأرض بقدميه وتوقف مع ذاته لبرهة محاولا أن يخمن مكانها في هذه اللحظات، فانطلق شعاع من قلبه ليدله على مكانها حيث أنها ذهبت إلى الشاطئ للتو، بالفعل قد جاءت للشاطئ لذلك غادرت المكان لأخلي لهما جو الصلح وقصدت المدينة لشراء بعض مستلزمات الصيد، وكنت مشغولا برسم موقف الصلح الذي سيعيد العاشقين لدائرة حبهما من جديد، وقد لونته بأبهى الألوان، لذا فرغت من حاجتي بأسرع وقت وعمدت إلى الشاطئ لعلي أسمع همسات العشق وهي تترنم في فضاء الجمال من جديد، لكن قبل وصولي الشاطئ بقليل وجدت عصام عائد إلى بيته فقطعت عليه طريقه متعجبا من حالته التي بدا عليها، فربما أن سحرا قد دب في أحشائه ليغيره لحالته السيئة هذه، فقد خطفت عيناه قبسا من نار الشفق وأصبحتا حمراوين

داميتين، كفاه تتقلبان على بعضيهما كثكلى فجعت بابنها للتو، خشيت أن أسأله عما دهاه، لكن الذهول الذي اكتنفني قد احتل مكان لساني وسأله نيابة عني قائلا: " ما الذي جرى لك"، فقال لي وقلبه يعتصر ألما " بقبلة على الخليج أحييت انسانة، وقتلت أخرى بالقبلة نفسها" صعقت بما أجاب وقلت له بانفعال" لكنك لم تقبل تلك الغريقة، أنت أنقذتها"، فابتسم لي بلطف وقال وهو يسير نحو طريق العودة" لكني قد قبلتها في نظر نورة وهذا ما يهمني في الموضوع نظرة نورة" حدقت فيه كالأبله ورجوته بعيني أن يفصح عما حدث، فتبين لي أن نورة ستتزوج الليلة من ابن عمها الذي كان متلهفا للزواج منها منذ سنين، وقد تحقق مرامه دون أن ينبض ذرة عشق واحدة على الخليج، ملتقى العشاق.

... بعد ذلك نفضت ما بيدي من مستلزمات الصيد، وصوبت وجهتي نحو البيت وأنا عازم على ترك الصيد واعتزال الخليج.

النهاية

أحلام لا تنضب

صدر القرار، وباتت المدرسة في اضطراب، حتى عمت الفوضى أرجاء المكان، فالكل يريد أن يطلع على بنود القرار الجديد، أما انا فلا أنكر أن الفضول قد شدني نحوه لأعرف ما في القرار من جديد، لكني بت في حيرة من أمري لتكاظم الطلاب حول هذه الورقة، هل يا ترى قد أدرك الطلاب أهمية المشاركة في المسابقات الثقافية لهذا الحد؟!

بعدما غشيت غمائم الضبط والسيطرة الطلاب، وعدنا المدير بتعميم القرار على جميع الصفوف والمراحل الدراسية. الصف عارم والأيادي تكاد تصل السقف من شدة القفز، كنت الوحيد من بينهم الذي لم يرفع يده لذا أحسست بشعور النقص وهو يهرول نحوي، فأوقفته حينما رفعت يدي كبقية الطلاب، صرخ بنا المعلم " هدوء، هدوء" وبعدما عشعش الهدوء في أحشائنا تريث المعلم قليلا وقال لنا بنبرة حادة:

" لا يعقل أن تصدر مثل هذه المشاركات الطفولية من قبل طلاب الثانوية، فجميعكم سيطلع على بنود القرار، ونحدد معا الطالب المخول للاشتراك بالمسابقات التي جاءت في هذا القرار.

هيمن الصمت على أفواه الطلبة، وبدأت عيونهم تتراسل بتقنيات التعجب، فهل أوقعوا أنفسهم في مسؤولية لامنهجية كانوا في غنى عنها. واستمر المعلم في شرح كيفية الاشتراك بالمسابقات الثقافية وكيف أنها ستنتقل بنا عبر عدة مراحل فالبداية ستكون من المدرسة ثم سيتنافس الفائز على مستوى مديرية التربية التي تتبع لها مدرستنا ثم سيكون التنافس الأخير على مستوى وزارة التربية والتعليم بشكل عام.

بالنسبة لي لم اسمع كلمة واحدة من المعلم، فقد كنت مشغولا بمراقبة الأيادي وهي تتناقص بشكل تدريجي واستشعر بلذة الهدوء الاختياري. سأل المعلم على حين غفلة

" والآن... من سيشارك منكم في إحدى هذه المسابقات"
وأردف حديثه بثقة عالية قبل أن ينتظر إجابة أحدنا
" أعتقد أن هناك عددا كبيرا منكم سيشارك بالمسابقات لذا سأفرز الطالب المناسب من خلال عقد مسابقة محلية تقتصر عليكم"
ولكن المفاجأة التي اكتسحت عيني المعلم، أنه لم يكن هناك أي يد مرفوعة سوى يدي، لا لأمر قد فرضته عليها إنما لأنها بقيت مرفوعة أصلا لا إراديا، فلبس المعلم نظارته ليتأكد من صحة ما رأى، فصرخ بنا بصوت صارم:
" ما هذه المهزلة، هل أحدثتم قبل قليل الفوضى لأرى يدا واحدة فقط! هيا أريد رؤية المزيد من المشاركات"
لم أعد اسمع سوى أصوات الطلبة وهي تتزاحم بين ثنايا صدى الغرفة الصفية، فقد أجمع أغلبهم على أن شروط المسابقة صعبة للغاية، فمن منهم يستطيع كتابة قصة أو حفظ أجزاء من القرآن أو أبيات من الشعر، وتعالى صوت الضحك في الصف حينما علق احد الطلاب ساخراً:
" نحن لا نستطيع كتابة أسمائنا بشكل صحيح حتى نكتب قصة أو مقالة"
طرق المعلم بعصاه المبغضة الطاولة وعم الصمت الصف، فقال بتعجب:
" ألا يوجد سوى معتصم يرغب بالمشاركة"
زاد قلبي نبضاته بسرعة، واحمر وجهي بشدة، لكني قد خضعت في نهاية المطاف للأمر الواقع وتوجب مني كتابة قصة قصيرة في غضون أيام، حينئذ تملكت الغيرة كل من الطالبين سعد وحسام فاعترضا على اختياري أنا الوحيد من الصف، مما دفعهما للمشاركة أيضا في مسابقة القصة القصيرة نكالا بي، فأنا لست مجتهدا وهما من الطلبة المجتهدين وعليهما أن يفرضا اجتهادهما في دروسهما على القصة القصيرة حتى لو لم يكونا موهوبين في كتابتها، فوجدت أن الفرصة قد سنحت لي بالانسحاب، لكن بقية أصدقائي

الطلبة قد منعوني من الانسحاب ووقفوا في صفي وقفة رجل واحد أمام كيد سعد وحسام، وتفاوتت طرق الإقناع.

" معتصم يمتلك القدرة على استحضار الكلمات الجميلة"

" لقد ولد معتصم أديبا"

" البلاغة وضعت من أجل معتصم"

وبالتالي اضطررت للخضوع عند رغبة أصدقائي وقررت الاشتراك في مسابقة القصة القصيرة، وقد تم تحديد يوم الأربعاء القادم لإجراء مسابقة محلية لاختيار الطالب الأفضل من ثلاثتنا للتنافس على مستوى مديرية التربية والتعليم. حينئذ فقط شعرت بنظرات التحدي وهي تتدفق من عيني زميلي كفيضانات مرعبة.

عدت لأبي وأنا متعطش لنصائحه وتعليماته فزودني بقصص قصيرة لأدباء مشهورين، فقرأتها بتمعن لدرجة أنني شعرت أنني بطل كل قصة من تلك القصص وشعرت بحاجة ماسة لتفريغ ما بداخلي على ورقة بيضاء حتى استنتجت أن القصة وعاء نفرغ به مشاعرنا وأحاسيسنا بصورة فنية جميلة.

وكتبت القصة وتأهبت للمسابقة بكل ثقة. جمعنا المعلم في مسرح المدرسة بحضور نخبة من معلمي المدرسة وطلبتها وبدأ زميلي سعد بقراءة قصته وتمكن من الإجابة على معظم الأسئلة التي طرحتها عليه اللجنة، وكذلك فعل صديقه حسام، حتى بدأ الخوف يتمالكني من براعتهما في الأداء، فلم أكن أتوقع أنني سأخوض في يوما ما مثل هذه التجربة، لكنني أقف اليوم أمام تحدي كبير يتوجب علي أن أخوضه بكل حزم، لذا تذكرت نصائح أبي في إحدى عيني ورأيت أصدقائي المشجعين لي في عيني الأخرى، فتسمرت بأرضي كالطود ونفخت صدري كمصارع قوي، وبدأت بقراءة نصي بصوت منغم. وقد نسيت كل من حولي وشعرت فقط أنني أديب مشهور أقف أمام جمهوري وأملي عليهم ما جادت به قريحتي لأمتعهم فحسب، وحينما فرغت من قراءة قصتي لم أسمع سوى التصفيق الحار من جميع الحضور.

بعد برهة من الزمن أعلنت النتيجة، فلم تسعني الدنيا لأسكب بها فرحتي عندما سمعت كلمة" مبارك" وهي تنطلق من فم معلمي مغردة بأجمل الترانيم، فعرفت أنني الفائز وسأتأهل للتنافس على مستوى مديرية التربية مع طلبة موهوبين بكتابة القصة القصيرة.

انطلقت بسرعة البرق للبيت، وناديت بأعلى صوتي أنني قد فزت، وأخبرتهم أنني سأذهب للمديرية لعرض قصتي هناك أمام عشرات الطلبة الموهوبين، فسألت أبي بلهفة:

" هل يعقل أن أفوز على مستوى مديرية التربية وبالتالي أتمكن من المشاركة بقصتي على مستوى الوزارة"

ضحك أبي وقال لي بهدوء:

" احلم يا بني كيفما شئت، فالأحلام هي مضجع العظماء، إن بقيت بهذه الدافعية لن تصل فقط إلى الوزارة، بل ستكون يوما من الأيام كاتبا مشهورا وستعقد لك الأمسيات الأدبية، وسيسطر اسمك صفحات المجلات والكتب، فالأحلام لا تنضب"

غصت بعد سماعي كلام أبي بنوم عميق حالما بالقلم الذي سيرسم لي طريق أحلامي.

النهاية

سلم القمر

تدحرج مرات عديدة بالأثاث المتراكم في وسط البيت وهو يحاول أن يصل لأمه في المطبخ لتعد له كوب حليب، كانت أمه تنجز مهامها وتسلي نفسها بغناء قبيح متقطع خارج من حنجرة لينة، وفستانها الأسود يكاد لا يبين وسط ظلام المطبخ، فبصيص النور المنبثق من خرم الباب قد كان كافيا بالنسبة لها لانجاز مهامها، بينما ما يزال طفلها يستنجد بصوت المؤذن الذي بدأ يعلو للتو في سماء متشققة لعله ينقذه من وحشة الظلام المهيمن على الأجواء، فتح الطفل باب المطبخ على مهل حتى استقر صريره في أذن أمه، ولولا وجود الظلام لاتضح الارتباك على وجهها الجميل، وربما أن الرجل الذي قد فر هاربا من الشباك قد أصيب بكدمات عنيفة، أمسك الطفل بزوائد ثوب أمه والتصق بساقها مذعورا، فهدأت من روعها قليلا وصرخت في وجه طفلها بحدة.

- ما الذي أتى بك إلى هنا... ألم اقل لك لا تخرج من غرفتك أبدا.

لم يجب الطفل وبقي يحملق بالشباك بعينين رجوليتين، فانتبهت أمه لذلك وقالت بنبرة متلعثمة.

- لقد كان خالك.

ابتسم طفلها ببراءة وقال بعذوبة

- ما أكثر أخوالي!

ثم أردف كلامه بطلبه الطفولي

- أريد كوب حليب

لطمته أمه على وجهه، وتركت على خده بقعة حمراء طازجة، تصلح أن تكون وجبة خفيفة لآكلي لحوم البشر، وقالت بعنف استولى على رشاقة جسدها:

- ألا تعلم أيها الغبي أن الرئيس قد حرم الحليب على الأطفال؟!

خرج الطفل مدحورا وهو يجر وراءه أذيال طويلة من أسئلة ملحة، فلم حرم الرئيس الحليب على الأطفال؟ هل صحيح ما قالته أمه أن الحليب مضر بالصحة، هل يعقل أن يكون الخمر أكثر فائدة من الحليب، فالمسؤولون يتفاخرون برفع كؤوس الخمر كأنه ماء زمزم، بيد أن السبب الحقيقي وراء منع أطفال البلدة من شرب الحليب هو طفل الرئيس حيث انه لا يحب الحليب وصحته غير جيده ونموه غير سوي، لذا قرر الرئيس تحريم الحليب على الأطفال فلا يعقل أن يكون أطفال البلدة أصحاء الجسد بينما ابن الرئيس ضعيف البنية.

وهرب الطفل للشارع لعله يستأنس بأضواء الشوارع، فتزيل شيئا من الخوف الساكن في قلبه، لكنه قد ذعر لمنظر فتاة جميلة تستنجد بالمارة من كلب يلعق ساقيها ولم يكن أحد يراها سوى رجل يطل برأسه من بين أغصان الخميلة المجاورة فقد أعجبه منظر الأنثى وهي تتلوى بجسدها جراء دغدغة الكلب، لكنها لم تلبث هنيهة حتى خرت مستسلمة وجلست أرضا بعدما مدت ساقيها للكلب كي يلحسهما فأصبحت تضحك بشدة وكأن الكلب قد أعجبها. فمر موكب أحد المسؤولين أمام الفتاة فقامت من متعتها لتلحق بالموكب وتصفق للمسؤول بكل اخلاص شأنها شأن آلاف الناس الذين يلهثون وراء مصالحهم غير المكتسبة.

لقد كان المسؤول يرفع يده للمارة ونظره مسلط على جيوبهم، فهو يأخذ ولا يعطي بل يؤذي الناس وهم يعلمون لكنهم ما يزالون يصفقون، انثقبت جيوبهم من قوة النظر وأصبحت النقود تملأ فم المسؤول بشراهة، وحينما انتبه الطفل لهذه السرقة حاول جاهدا أن ينبه اللاهثين بخطورة الموقف لكن الرجل العريض ضربه بقوته ليزيحه عن طريقه فوقع الطفل أرضا وهو يتأوه، لقد كان هذا الرجل يستغل تجمع الحشود وقام بتوزيع صور زوجته عليهم طالبا منهم المال مقابل تحديد الموعد. فاشمأز الطفل لمنظر الديوث واستكثر عليه كم اللحم الهائل المعبأ في جسده، وظن أن أمثاله يمتلكون القدرة

على حماية الشرف والتفاخر بنظافته وليس عرضه على المارة وبيعه بأبخس الأثمان.

تنفس الطفل الصعداء، وحملق في السماء المتشققة ليجد سربا من الطيور يلاحق طيرا صغيرا مثقلا بجروحه، وحينما وقع الطير المجروح بالقرب من الطفل هبطت عليه الطيور القوية لتبدأ بنهش الضعيف دون أن يبالوا بوجود الطفل بقربه، وكأنهم أمنوا عاقبة فعلتهم فالقانون يطبق على طيور دون أخرى، فهنيئا للسماء بطيورها القوية!

حاول الطفل جاهدا أن يتخلص من كل خطيئة قد رآها اليوم، وأراد أن يلجأ لعالم الفضيلة، فتوجه للمسجد لعله يجد ضالته لكنه تفاجأ بصراخ شديد يخرج من البيت المجاور للمسجد، لقد كان الابن يصرخ في وجه أبيه بشدة وكأن الأدوار قد قلبت فأصبح الابن أبا والأب ابنا، وحينما خرج الابن العاق بدأ يبتسم في وجه هذا ويصافح ذاك بحرارة بعدما حسب الطفل أن الرحمة قد خرجت من قلب الابن مجرد ما قرر أن يصرخ في وجه أبيه. لذا ركض الطفل بسرعة الريح للمسجد لعله يبتعد عن هذه الوحوش البشرية، لكنه تفاجأ بوجود جنازة في المسجد وحينما تحقق من الأمر تبين أنها جنازة طفلة من عمره قد توفيت عنها أمها ووكل أبوها تربيتها لزوجته الجديدة فقامت زوجة الاب بدهن أذن الطفلة بالعسل في بداية كل ليلة حتى تمكن الذر من الدخول لرأس الطفلة ونهش دماغها وذنبها الوحيد أن والدها كان يحبها أكثر من زوجته وحينما شعرت الزوجة بذلك قررت التخلص من الطفلة بهذه الطريقة البشعة.

أراد الطفل أن يتخلص من كل ما رأته عينه في هذا اليوم، وقصد بيته ليلتزم غرفته مع العلم أن أخواله يزدادون مع شروق شمس يوم أسود جديد، ولم يكن يعلم أن طريق العودة للبيت وعر جدا فهو مليء بالخطايا، وكل خطيئة ألعن من سابقتها، فهذا يخطف الأولاد ليبيع أعضائهم، وتلك تستعرض جمالها أمام صاحب العمل لتحل مكان شاب طموح صاحب كفاءة جيدة، ذنبه أنه ذكر، فيضطر

الذكر أن يسرق بيت ذلك الغني، بينما الغني يريد أن ينتقم بوضع القوانين الصارمة التي تزيد من بؤس كل فقير، فأسرع الطفل خطاه ليصل لعتبة بيته في منتصف الليل والدموع تكاد تغرق وجنتيه الغضتين، وأمه لم تفتقده بعد، لذا استغل انشغالها مع خاله الجديد، وبدأ يبكي على حال أبيه المسجون منذ سنوات في سجن العقلاء، وتهمته في ذلك أنه يفكر وقرر أن يتكلم!

جلس الطفل على عتبة بيته وخطايا الناس ما تزال تمر في معبر ذاكرته بكل هدوء، وتخلف وراءها بقعا غير زائلة من الصداع. بل أصبحوا يتباهون ويتفاخرون بذنوبهم، حتى أصبح الذنب مدعاة للتنافس بين بعضهم بعضا، فرفع رأسه للسماء المتشققة مستنجدا رحمة ربه، فلمح القمر يبتسم له، فظن أنه يتخيل منظره وهو يبتسم، ربما لحاجته الماسة للابتسامة الصادقة في ظل زمن أصبحت فيه الابتسامة تكشف عن أنياب الخبث فحسب، دقق الطفل البصر في عمق القمر ووجده يبتسم له بالفعل وأن ابتسامة القمر حقيقية لا يساورها الخيال، شهق الأمل بقوة، وأطلق زفير الراحة في عمق السماء المتشققة لتبدأ قطعها بالاقتراب من بعضها بعضا حتى تسد الشقوق، ابتسم ابتسامة كان ينتظرها منذ الميلاد، ومد يده نحو القمر لاجئا إليه، وترجاه أن يرفعه عنده لعله يتخلص من مجتمع آيل للحقارة، لعله يستمد من نقاء القمر وصفائه هواءً نقيا خاليا من المرض يعينه على الإصلاح، أعجب القمر بروح الإصرار عند الطفل، وتأمل وجهه الطفولي المليء بتجاعيد القهر، وأراد بالفعل أن يخلصه مما هو فيه، فأنزل إليه سلما يبدأ من عمق القمر وينتهي إلى عتبة بيت الطفل، وأمره بالصعود إليه عبر سلم القمر شريطة ألا يتذكر خطايا البشر وآثامهم كيلا يتأخر بالوصول إلى القمر، لكن الأمر لم يكن في يد الطفل فكان يستذكر الخطايا كلما صعد درجة من درجات السلم وبالتالي كان يرفع قدمه بصعوبة لاجتياز الدرجات، فقد تذكر أمه وأخواله، وتذكر الكلب والفتاة، وتألم كثيرا لاستذكاره الرجل العريض، وبكى بشدة لخداع المسؤول، وتجمدت قدمه في منتصف

السلم حينما تذكر الطفلة المقتولة وزوجة أبيها، حاول أن يستمر في الصعود لكن ألم الذكريات قد منعه من الاستمرار، فحثه القمر على الاستمرار قدر الإمكان وألا يستسلم لأي شيء كان، لكن حينما دبت العزيمة في قلبه ونوى الاستمرار في الصعود بدأت الشمس السوداء في البزوغ من عمق بقايا الشقوق، وبدأ القمر في الاختفاء تدريجيا، فهلع الطفل لهذا المنظر وحاول أن يشد خطاه نحو القمر والإصلاح لكن الشمس قد بزغت وانتهى الأمر واختفى القمر وسلمه فسقط الطفل وبقيت أحلامه في الإصلاح معلقة بين السماء والأرض.

النهاية

ذلك التوقيع

ما هذا؟! هل يرون شخصا مشهورا لأول مرة؟! تباً لهم لقد أرهقوني تقبيلا ومدحا، يدي باتت ترتعش لكثرة الحركات الطفيفة التي قام بها القلم على أوراقهم غير المعدودة، كل واحد فيهم يقول الجملة ذاتها " توقيعك أستاذ" هذه الجملة تتكرر بين آيب وقادم.

أف! ما هذا الإرهاق؟! لقد أصابني الضجر لدرجة أنني تمنيت لو لم أكن فنانا مشهورا. هؤلاء المعجبون لا يعرفون الرحمة، ثم من أنا ومن هم كي نجتمع سويا في مثل هذه المواقف، لكن يجب أن أتحمل قليلا وذلك لصورتي المتواضعة أمام الإعلام، وكيلا تبدأ أقلام الصحافة بالتمرد، هكذا قال لي مدير أعمالي البليد فهو لم يقل غير الصواب ولولا كلماته المنقذة في مثل هذه المواقف لاستغنيت عنه واستبدلته بمدير أعمال آخر ذي مكانة أرقى، فأنا لا يناسبني إلا الأرقى فحسب!

ويل لحالي، حافلة أخرى قادمة، وهاهم الركاب يتزاحمون علي كغثاء السيل، حاملين أوراقهم في أيديهم ويتدافعون نحوي كالنمل وكأنني قطعة حلوى.

" حسنا يا مدير أعمالي سأسمع كلامك هذه المرة وسأصبر"

وأخيرا فرغت من التوقيع على أوراقهم، لكن ما هذا؟! ما يزال شخص يجلس في الحافلة، يلبس نظارة المحتالين، ربما أنه سينزل بعد قليل حينما تختفي الأزمة من حولي، لكنه قد طال وقت اختفاء الأزمة ولم ينزل هذا الرجل بعد، ويل له! لم لا ينزل مثل بقية الركاب، هل هو أفضلهم أم أنه شخص مهم مثلي، لقد اقتحم الفضول نفسي، لا بد أنه يغار مني ولا يريد أن يطلب توقيعي، آه غروره يقتلني، إنه لا يعرني اهتماما، وتجاهله يثير صخبي، فلم أعتد على التجاهل بتاتا، والناس يتدافعون نحوي بكثرة، فلم لا يكون مثلهم، وما الذي لا يعجبه بي؟! بقيت ألعن نفسي في جحيم الأسئلة حتى أدى بي الحال للذهاب إليه لأعرف ما في نفسه اتجاهي، فهذا من الأعراض الجانبية للفضول، وعلي تحملها!

جلست بجانبه وما يزال التجاهل باديا عليه بوضوح، فحاولت أن افتح معه باب الحديث

- مرحبا

- أهلا

- كم الساعة؟

- آسف، لا يوجد معي ساعة.

تذمرت كثيرا لبرودة إجابته، وبقينا صامتين لبرهة ثم عطست لألفت انتباهه، فشمتني بهدوء، وأجبته بشده وعاد الصمت لمجراه. رأيته يكتب على دفتره الصغير بصورة عشوائية وبطريقة غير مرتبة وكأن مطبات الطرق قد استقرت بأوراقه، سألته باهتمام

- ماذا تكتب؟

- مقال

- هل أستطيع الإطلاع عليه، فأنا أحب قراءة المقالات.

- ولم لا؟ على الرحب والسعة.

- "ذلك التوقيع" عنوان جميل

(صمت)

- آه، ما هذا، هل تنتقد الأشخاص المشهورين اجتماعيا وتدعي أن بعضهم يتعاملون مع الناس بغرور، لقد فهمت الآن، أنت تقصدني أنا بمقالك أليس كذلك؟! ولهذا السبب لم تطلب توقيعي.

- عفوا سيدي لم تحدثني بهذه الطريقة؟ ثم من أنت؟

- آه، أنت تغيظني، أكاد اختنق افتح النافذة، هل تصر أن تقهرني حينما تتدعي عدم معرفتك لي، أنا أعرفكم جيدا أيها الأدباء، فأنتم فئة حاقدة على المجتمع، ألا يكفي أن خطك غير مرتب.

- افسح لي الطريق، أريد الإنصراف، لقد شتمتني دون أن أعرف ما ذنبي... لكن أسأل الله أن يسامحك.

قال جملته الأخيرة، وتركني أتأسف عما بدر مني، لدرجة أنني قررت أن أعيد حساباتي مع نفسي وأن أبني من أخلاقي بنيانا جديدا، لأكون انسانا آخر يحترم غيره ولا يتكبر على خلق الله مهما علا شأنه وارتفعت مكانته، لقد خرج الرجل صاحب النظارة من الحافلة وهو يستعين بعصاه، لقد كان ضريرا، ورأى ما بدر مني من تكبر وغرور ببصيرته ودون أحاسيسه في مقاله الذي انطبق علي تماما، فقررت أن أتغير للأفضل بعدما صنع مني هذا الأعمى انسانا جديدا.

النهاية

بهارات مشكلة

انطلق سباق الأصوات في السوق منذ الصباح الباكر، حيث أن الأعلى صوتا سيرتاد عليه الزبائن بكثرة. الأصوات المنطلقة من أفواه الباعة كانت تملأ السوق ضجيجا بشريا منفرا، والشمس التي تخترق بلهيبها سقوف السوق القماشية كانت تزيد من حرارة التسوق عند المتسوقين، بينما الألفاظ البذيئة التي يتلفظ بها أصحاب العربات المتنقلة كانت تقتل الآذان النظيفة.

بين مداخل السوق ومخارجه يلتقي الناس على اختلاف أنواعهم وخصائصهم ويضطرون أن يندمجوا مع بعضهم بعضا لغاية التسوق، لهذا اضطرت أم رياض أن تفرد بسطة البهارات المشكلة أمامها لتصيب رزقها المكتوب متحملة كل مالم تعتد عليه في تربيتها ونشأتها، فصوتها الهادىء لن يمكنها من خوض سباق الأصوات، وحياؤها لن يجعلها تستمر في مراقبة أصحاب العربات لتستخدمهم في خدمة زبائنها، بينما جمالها لن يتحمل لهيب الشمس الملتصق بسقوف السوق. لكن مع كل معوقات السوق هذه تمكنت أم رياض من تشكيل قاعدة زبائن متينة، فهي ترضى بالربح القليل مقابل البيع الكثير، مما أدى لإدخال الحسد في قلب أبي أسعد صاحب أكبر متجر للبهارات في السوق، فزبائن أم رياض يفوقون زبائنه بكثير رغم أن متجره يحوي أفخم أنواع البهارات وأجودها كما أن محتوياته تفوق ما تحمله بسطة أم رياض البسيطة، لكنه الرزق المكتوب.

حاول أبو أسعد أن يتزوج من أم رياض ليضيفها لزوجاته الثلاث، لكن أم رياض ترفض فكرة الزواج بتاتا، وحجتها في ذلك ابنها رياض، فهي تريد أن تتفرغ لتربيته وتدريسه بعد وفاة والده، فهذه وصية زوجها ولن تفرط في تنفيذها مهما أكل السوق من شبابها، وخصوصا انه الآن في مرحلة الثانوية وبقي له عاما واحدا لدخول الجامعة، وبذا تحقق أم رياض حلمها في تدريس ابنها، فازداد حقد

أبي أسعد وقرر أن يحاربها في رزقها لعلها ترضى به زوجاً حينما تكاد تموت جوعا.

عادت أم رياض لبيتها والتعب يكاد يشلها، وأحضر ابنها الماء المملح لتنقع قدميها به، فابتسمت له ابتسامة مملوءة بالرضا، ونظرت إليه نظرة ممزوجة بالتعب والسعادة في آن واحد، لكن ابنها لمح بريق التعب بوضوح أكثر، فتنهد تنهيدة خفيفة وجلس مقابل ساقي أمه وركز النظر في عينيها بكل عطف قائلا بحنان بالغ:

- أمي، ألم يأن لك أن ترتاحي من كل هذا العناء؟!

- إنه رزقنا يا بني، وما ألذ الرزق الممزوج بالتعب.

- لقد أصبحت رجلا، وأنت ما تزالين تدبرين لقمة الخبز.

- مهما كبرت ستبقى طفل عيني.

- أمي، حتى القانون سيعترف ببلوغي بعد بضعة شهور وأنت تعاملينني كما تعاملين الأطفال.

ابتسمت أم رياض، وبدأت تجفف قدميها من الماء، لكن سرعان ما اخفت الابتسامة وألقت المنشفة بجانبها بغضب حينما سمعت ابنها يقول:

- أمي، آن الوقت كي ترتاحي... سوف أذهب للسوق عوضا عنك.

- إياك أن تعيد هذا الكلام مرة أخرى، فلم أمض حياتي في السوق بعد وفاة والدك كي تأتي الآن لتقول توقفي عن العمل، لم يبق لدخول الجامعة إلا القليل فاللقمة تكاد تصل للفم!

حاول رياض أن يستعمل كل سبل الإقناع مع أمه، لكنها أنهت النقاش منذ بدايته، ولن تسمح أبداً أن يفتح معها هذا الحديث مرة أخرى، فهي مستعدة أن تتجرع المر مقابل أن تنفذ وصية زوجها، وهاهي تقترب، فماذا عنك أيها القدر، هل ستقدر بائعة البهارات على تحقيق مرامها؟! أغلق رياض باب غرفته على نفسه بعدما أغلق على الإصرار في قلبه، وحرص كل الحرص أن يتفوق في دراسته لعله يحظى ببعثة أوائل الطلبة ويدرس بالمجان، كانت الأحلام تراوده من

أجل أمه وليس من أجله، فقد رسم صورة أمه أمام كل حرف من حروف كتبه، ومضى جاهدا أن يعين أمه على تنفيذ وصية والده الذي لم يراه قط.

تجمع الزبائن حول بسطة أم رياض وهي تعمل بكل جد، تعبئ البهارات في أكياس صغيرة وتعطيها بحركات خاطفة للزبائن دون توقف، فاستغل أبو أسعد تجمهر الزبائن حول بسطة أم رياض وأرسل الصبي الذي يعمل عنده لينفذ ما اتفقا عليه، وحينما وصل الصبي البسطة مخترقا التجمهر وحينما تأكد أن الكل يسمعه مد حزمة من النقود نحو أم رياض وقال بصوت مرتفع:

- لقد أرسلني ذلك الرجل الذي يجلس في تلك السيارة الفخمة وقال لي أعطي أم رياض هذه النقود وقل لها هذه أجرتك عن ليلة أمس وأنك ستأخذين المزيد لو رضيت أن تخرجي معه إلى بيته هذه الليلة أيضا.

حملق الزبائن في وجوه بعضهم بعضا بينما قد شل لسان أم رياض داخل فمها وعجزت عن الدفاع عن عرضها، وشعرت أن الأرض تتزلزل من تحتها وأن الكون يدور بها فتمنت أن تغوص في الموت كي يرحمها مما هي فيه، وبدأ الزبائن يغادرون بسطة أم رياض واحدا تلو الآخر وهم يستغفرون الله، وكأنهم قد رأوا فاحشة للتو، التفتت أم رياض نحو متجر أبو أسعد وشكلها يوحي بالمرض فوجدته يقف أمام متجره وهو ينفث سيجارته مع ابتسامة شيطانية، فحاولت أن تقف على قدميها لعلها تصله فتلطمه على وجهه وتنعته بالنذالة لكن قدميها خاناتها، وسقت أرضا غارقة بغيبوبة طويلة، فهي التي تحملت ضنك الحياة وبشاعة السوق كي تبعد كلام الناس عنها، وكي توفر لابنها حياة نظيفة يرفع رأسه بها متى شاء، كانت تطمح أن تكون قدوة لابنها، وأن تزرع شخص أبيه في داخلها، فتكون له آبا وأما في الوقت نفسه، كانت تتوقع أن تكون قوية قادرة على تحمل مشاق الحياة وتدافع عن نفسها أمام أي اتهام مهما عظم شأنه، لكنها لم تكن أن اتهمامها في عرضها سيقتلها ويجعلها تموت سريريا.

اضطر ابنها دون أن يعلم سبب مرض أمه ورقودها في المستشفى أن يواصل عمل أمه وأن يدب الروح في بسطتها من جديد، فقد أنهكه التعب والبكاء على حال أمه، وقد كادت مشاعر الجنون أن لولا زفير الأمل الذي كان ينبعث من أنف أمه وهي نائمة، فشد العزم أن يواصل عمل أمه بعد انتهائه من دوام المدرسة، فيصرف على علاج أمه ما بقيت راقدة في المستشفى. وقد استغل جلوسه أمام البسطة في الدراسة كي يتمكن من الحصول على المعدل المطلوب ليدرس مجانا، فلا بد أن نجاحه سيشفي أمه بإذن ربه، لقد كان نصيبه في الرزق كنصيب أمه، فقد كانت قدوته بالفعل، يعامل الناس باحترام ويبيع الكثير ليجني الربح القليل، ويبتسم للمارة بصدق، وكأنه يريد أن يتصدق عليهم من اجل أن تشفى أمه، وما زال أبو أسعد يرقب قوة الإرادة عنده محاولا أن يقتلع هذه العائلة من السوق من جذورها، فهو يظن أن وجودهم نحس عليه، فآن الأوان ليتخلص من ابن تلك المرأة العنيدة التي رفضت الزواج منه.

مرت الشهور والبسطة تجني ما يجنيه متجر أبو أسعد، أليس هو الرزق المكتوب فوق سبع سماوات، أليس الله أمرنا بالسعي وتكفل هو وحده بالرزق، فهذا حال رياض فقد رزق رزقا وفيرا يكفيه علاج أمه ولقمته، خلال هذه الشهور تمكن رياض من النجاح بمعدل باهر وبذا يكون قد حقق حلم أبويه، بينما قد خفق أسعد في دراسته للمرة الثالثة رغم أنه يملك مالا يملكه رياض من رغد العيش، فاشتعل لهيب الحسد والحقد في قلب أبو أسعد وازداد مرضه اللعين في داخله، وقرر أن ينفذ رغبته بالتخلص من هذا الفتى واتصل بالبلدية!

أصبح السوق كساحة وغى، أو ربما أن القيامة قد قامت فيه، الناس بدأت تركض بضجر، والباعة المتجولون هربوا ببضاعتهم، بينما قد حزم بياعو البسطة بسطتهم في خرقة بالية وانطلقوا يجرونها ورائهم إلى مصير غير معروف، بينما كان رياض يلتفت حوله فزعا من هول الموقف، ولا يدري ماذا يفعل، حاول أن يقف ويلم بضاعته ويفر هاربا كبقية الباعة، لكن الوقت لم يسعفه، حيث أن مفتشي البلدية

قد جاؤوا له بالذات وليس لغيره، قد جاؤوا ليغتنموا بضاعته بلا قتال، جاؤوا ليقتلوا أحلام طريـة لم تنضج بعد في قلبه، أمسكوه بعنف ورموه على قارعة الطريق كجرذ قذر، وشرعوا في سلب بضاعته ووضعها في شاحنتهم وبقاياها تتراكم تحت أقدامهم، أمسك رياض شيئا من بقايا بضاعته وأصبح يقبلها والدموع تحرق وجنتيه قائلاً:

" لا تسرقوا دواء أمي، لا تسرقوا لقمتنا"

لم يعتد رياض أن يترجى أي شخص، فهكذا ربته أمه، لذلك وقف متسمرا على أرضه واقبل نحو المفتشين بصرامة وأمسك أحدهم من تلابيبه قائلا بكل حدة:

- أعد البضاعة، لا تحارب رزقنا، نريد أن نعيش.

هجم عليه بقية المفتشين وأبعدوه عن زميلهم فقالوا له وكأنهم يشتركون في لسان واحد.

" عش وفق أحكام القانون"

" من أراد أن يخالف القانون يستحق ما أصابك"

" بضاعتك غير مشروعة ونحن نخشى على الناس الهلاك"

صرخ رياض في وجوههم بعدما سمع جملهم المنفرة بأعلى صوته:

" ألست واحدا من هؤلاء الناس الذين تخشون هلاكهم، ألا تخشون هلاك أمي وهلاكي أيضا، أم أننا لسنا من الناس، القانون وضع لإسعادنا وليس لشقائنا فإن كان قانونكم سيجعلنا نموت لن نرضى به أبدا، هل فهمتم؟!"

لم يفهموا يا رياض كلماتك ولن يفهموا، فما هم سوى آلات تنفذ ولا تفكر، فلا تضيع صوتك سدى، والتفت لمستقبلك فهو يناديك.

جلس أبو أسعد أمام متجره بكل تفاخر ووزع الحلوى احتفالا بالقضاء على شرفاء السوق وأنقاهم سريرة، بينما رياض قد لملم أحزانه وغادر السوق متأملا أن يبدأ مشوار حياته من جديد بكل ثبات وصبر، لكن الخبر الذي جاءه من المستشفى قبل قليل جعل الصبر يفرغ عنده، فأمه تحتاج لدواء ضروري لا يتوفر في صيدليات

المستشفى كما أن ثمنه مرتفع للغاية، حاول رياض أن يستقرض ثمنه من معارفه في السوق، لكنهم رفضوا بحجة أنه لم يعد لديه عمل كي يتمكن من سدادهم في المستقبل، فابتسم له أبو أسعد بخبث كي يلجأ إليه لكن كرامة رياض جعلته يفر هاربا من السوق للأبد، فذهب لإحدى الصيدليات محاولا أن يستعطف صاحبها كي يعطيه الدواء، لكن الصيدلاني ضحك بشدة وقال" أنه لا يملك ذلك الإيمان الكافي ليجعله يتصدق برزق عياله على المارة والمتسولين".

شعر رياض أنه كالمتسول بالفعل، وأنه لا توجد طريقة تجدي نفعا مع أناس قد استقرت المادة في عمق قلوبهم، وأصبحت علاقاتهم تقتصر على مصالحهم، فأنى وجدت المصلحة وجدت العلاقة، شعر للحظة أن المبادئ والقيم التي علمته إياها أمه بدأت تنقرض شيئا فشيئا، فعزم على حين غفلة أن يحضر الدواء بطريقة لم يعهدها في حياته ولم يتوقع أن يفعلها أبدا، فبررت غايته وسيلته في ظل قانون تبرر وسيلته غايته، لذا عمد ليلا لصيدلية ذلك الصيدلاني وكسر أقفالها محاولا أن يقتحمها ويأخذ الدواء، لكن أجهزة الإنذار التي لم يتوقعها كانت له بالمرصاد فوقع بين أيدي الشرطة متلبسا، فأصبح بعد اليوم سارقا!

توفيت أم رياض وانهارت قوى ابنها خلق قضبان السجن، وودع دراسته الجامعية للأبد، فالسارقون لا يستحقون البعثات المجانية، وودع وصية أبيه منذ أن ودعت أمه أنفاسها الأخيرة، لكن الآمل ما زال يحلق فوق شرفة قلبه، وأراد أن يحقق ما عزمت أمه على تحقيقه، فلن يجلس مكتف الأيدي أمام مطبات الدنيا، فهذا ما علمته إياه أمه وسيحرص على تنفيذه.

خرج لشوارع الدنيا بعد انقضاء فترة الحكم، وزار قبر والديه وبكى عندهما بكاء يكفي لري مزرعة شوك كبيرة، فكفكف دموعه وعاد إلى بيته بعدما قرر البحث عن عمل ما ليعيله ويعيل دراسته بعدما قرر الدخول الجامعة، ففتح له القدر بوابة الأمل وعانقت السعاده محياه، حيث أنه أجرى مقابلة للعمل في شركة كبيرة، حيث

ستقوم مهمته التدوين والحسابات، فقد اثبت مهارته في ذلك خلال المقابلة وقرر فريق العمل توظيفه لديهم لكن شريطة أن يحضر وثيقة " عدم محكومية" يثبت فيها انه حسن السيرة والسلوك وانه لم يرتكب جنحة مخلة بالأخلاق والآداب أبدا، حينئذ اقترب كابوس الشؤم من بصيص الأمل في قلب رياض ليخنقه ويقتله للأبد، لكنه ذهب لقصر العدل لإحضار الوثيقة في محاولة أخيرة منه ان يتلطفوا بحاله وان يمسحوا خطيئته من سجلاتهم نهائيا، وخصوصا أنه قد تاب عن فعلته ولا سيما أنه كان مضطرا لفعل ما فعل، فالله يتوب على عباده.

لكن واقع الحال يا رياض مختلف تماما عما كنت تعتقده، فتوبتك لن يغفرها القانون ما حييت وستبقى خطيئتك تسطر سجلاتك ودفاترك أينما ذهبت، وسيبقى جحيم ذنبك يرافقك حتى في سعيك لرزقك.

شعر رياض أن الدنيا قد أصبحت سوداء للغاية، ولا يوجد فيها اللون الأبيض أبدا، كما أنه شعر أن حياته قد توقفت منذ أن كسر أقفال تلك الصيدلية، وأنه لن يصلح أن يعيش منذ هذه اللحظة بين البشر كانسان صالح يريد أن يبدأ حياته من جديد، لكن ما دامت تلك الأنفاس في صدره لا بد أن يعيش، ولا بد أن يبحث عن قوته كي يستمر في العيش، وما دامت تلك السجلات ستحتفظ به سارقا ما عاش، وأنه لن يتمكن في إيجاد وظيفة مناسبة ما دام أصحاب العمل يشترطون نظافة تلك الوثيقة ،سيضطر حينئذ أن يستمر في السرقة كي يستطيع العيش. فقد قرر رياض أن يبدأ عمله منذ هذه الليلة وسيبدأ من متجر أبي أسعد.

النهاية

حمار المدلل

(دلال + دلال = دمار)، فماذا سيطرأ على الناتج لو زادت مجاميع الدلال، بالتأكيد لن يكون أكثر مما فعله أبو عدي من استخفاف وتقليل للطبقة الفقيرة.

اعتاد أبو عدي على تلبية طلبات ابنه المدلل، وخصوصا أنه قد جاء بعد رحلة علاج طويلة ليتمكن والداه من إنجابه، فالوالد حريص أن ينفذ طلبات ابنه التي تعد من كماليات ورفاهيات تلك الطبقة دون أي تأفف أو تأجيل، وإن لم تنفذ هذه الطلبات فالويل الويل لأبي عدي من طفله عدي، حيث سيتعكر مزاج القصر بالكامل ولن يهدأ تعكر هذا المزاج إلا بإحضار طلب المدلل.

وزادت السنوات من عمر عدي، وتضاعف مرض التسلط في جوفه مع مرور كل سنة، لدرجة أنه أصبح غير مبالي بالآخرين ومشاعرهم، فهو مستعد أن يتخذ من مشاعر البشر لعبة يمتطيها، وهذا ما كان يخشاه والده، لكن ماذا تجدي خشيته نفعا مادام ينفذ رغبات ابنه بشكل جنوني.

كان المدلل يتفنن في طلباته ورغباته، حتى أنه طلب في آخر اللحظات حمارا كي يمتطيه كل مساء في ساحة القصر، ثم يخلد للنوم، والعجيب أن طلبات الصغير قد تقلصت شيئا وشيئا مع هذا الحمار، حيث جاء ذلك اليوم عندما فقد الحمار، وبدأت صيحات الطفل تتعالى في فضاء البيت وتزلزل أرضيته، ولم ينفك أي عامل من عمال القصر عن البحث عن الحمار، حتى نال اليأس منهم، ورجع الجميع خائبين ومع هذه الخيبة قرر المدلل أن يقاطع أباه، فقرر الأب أن يحضر لابنه حمارا آخر، لكن المدلل ما يزال يصر على الحمار نفسه، فمن أين سيحصل على حمار شبيه به، يأمره فيطيعه دون أي تردد، فلم يكن بوسع الأب إلا أن أخذ ابنه للقرى للبحث عن حمار شبيه بحمار المدلل وعندما أخفقوا واقترب موعد المساء خطر على بال الأب فكرة حيث صحب ابنه إلى تجمع العمال، وطلب من

أحدهم أن يعمل لديه في القصر، حيث كانت طبيعة العمل أن يركب المدلل على ظهر العامل كل مساء ريثما يجد لابنه حمارا مشابها لحماره السابق.

النهاية

التخلص من فضلات الآخرين

وما زلت أسمع هذه العبارات العابرة التي تخرج من أفواه لا أطيق أن أرى الوجوه التي تحويها لتبذيرهم في هذه الدنيا.

" يا رجل، عش عياتك! الدنيا قصيرة"

هذه إحدى الجمل التي كان يتفوه بها أغلبهم، حيث كانت تسبب لي الغضب والتوتر الشديدين، يا ناس! هل أبذر نقودي في الهواء لمجرد العيش، ما شأن الناس بي؟ هل وقفت عند باب أحدهم أطلب منه كسرة خبز؟ أم تسولت أمام المساجد كل يوم جمعة؟ ما الذي يدفع أبو سالم كي يقول لي:

" يا رجل، العمر يجري، وأنت لم تلتفت لنفسك بعد!"

ما شأنهم بي؟! لم يضعون أنوفهم بين خصوصياتي كي يستنشقوها بعنف، أنا حر أريد أن أعيش كما أريد، أبيع الحياة أم أشتريها تجارة تتعلق بي وحدي، فلا داع للتدخل، وويل لهذه المشاعر الكريمة التي تنتابني من وراء كلماتهم على حين غفلة والتي تجعلني أشعر أحيانا - ولا أقول إلا أحيانا – أجد فيها شيئا من الصراحة ، لكن في نهاية الأمر أقتنع بأفكاري أنا فحسب، فطالما أن حاجياتي ما تزال صالحة للاستعمال فلا يوجد أي مبرر لإتلافها حتى لو كانت متآكلة من شدة الاستخدام أو رديئة المواصفات.

حذائي كان السبب الرئيسي وراء إطلاق عباراتهم النارية طلقة تلو طلقة من بنادق أفواههم، والتي جعلت لسان كل واحد منهم يزداد مترا، والذي ليس له لسان أصبح لديه لسانان! عالم عجيب، كلهم يقولون أنني أملك المال الوفير ولا أجرؤ على شراء حذاء جديد بل يتعجبون ويقولون:

" لو اشترى هذا البخيل حذاء سيكون له وحده فحسب، ولن يكون لغيره كي لا يشتريه، أيبخل على نفسه أيضاً"

خلاصة أقوالهم أنني أصبحت بخيلا، هل يعقل أن أكون بخيل لأني لا أريد أن أبذر نقودي وأجعلها تمشي على الأرض بدلا أن تحظى بالدفء داخل جيبي! فأجبتهم وأنا أغادر صفوفهم ضاحكا"

" طبعا إن قررت شراء حذاء فسأشتريه لنفسي، يعني ما أسعدني إن اشتريت لغيري أحذية"

تفاءل جميعهم بإجابتي وظنوا أنني عزمت على شراء حذاء جديد بدلا من حذائي المهترئ، لكن إن بعد الظن إثم يا أصيحاب، فأردفت حديثي بتهكم

" لكن لا تفرحوا، لن أشتري الحذاء!"

غادرتهم ولا أدري إن كانوا قد شتموني أم لا، لكن لا يهمني ما دمت سأحصل على حسناتهم ما داموا يغتابوني، والجميل في الموضوع أنني سأحصل على الحسنات دون أن أضطر أن أنفق نقودي في صدقة أو تبرع كما يفعل بعض المبذرين! ومع كل هذا المنطق يتهمونني بالبخل... ألم أقل لكم عالم عجيب؟!

عدت بيتي واستقبلتني زوجتي وهي تبكي، سألتها بتعجب " ما بك؟!" فهي لم تبك منذ فترة طويلة وما زالت تنفذ كلامي في عدم البكاء، حيث أنني أخشى أن يصيبها المرض من كثرة البكاء فاضطر أن أبعثها للطبيب، فقالت لي:

" لقد جاءتني جارتي بثمن حذاء كي أشتريه لك، لقد جرحت مشاعري هذه الحمقاء، هل تحسبني متسولة"

لم أتمالك نفسي من الغضب، فلم تضيع زوجتي مثل هذه الغنيمة كان من المفترض أن تأخذ النقود ونعاقب جارتنا ولا نشتري الحذاء، لكنني عاقبت زوجتي بدلا منها وأرسلتها لأبيها في إجازة مفتوحة لأنها لم تحسن التصرف، فليت الجارة قد جرحت رقبتها بدلا من مشاعرها، وهل أطعمتنا المشاعر الخبز في يوم من الأيام، وبذا سأكون وفرت طعام زوجتي لفترة لا بأس بها!

طاف حولي هاجس ما كي أشتري حذاء جديدا، فأصابعي قد خرجت من حذائي هذا وأصبحت شبه حاف، والأشواك بدأت تدميها،

فتحسست نقودي بألم وقررت التخلص من حديث الناس بشراء حذاء جديد، دخلت السوق ووقفت أمام محل الأحذية لكن الرجل لم يرحب بي كزبون كما تجري العادة، بل أبعدني من أمام المحل معتقدا أنني متسول، فشتمته بحرارة لأنه يظن كثيرا، ألا يعلم أن بعد الظن إثم؟!

واسيت نفسي وقررت أن أذهب للباعة المتجولين فبضاعتهم رخيصة بالتأكيد، فوقفت أمام عربة أحدهم وتصفحت أحد الأحذية باهتمام وبمبالغة شديدة، للحق كان حذاء جميلا، فسألته عن ثمنه، فأجابني

- خمسة دنانير.

صرخت في وجهه بعنف وقلت له بتهكم:

- تبا لك، ولم كل هذا الغلاء؟!

- بالعكس، إنه رخيص، ربما لو ذهبت للمحلات المجاورة ستجدهم يبيعونه بضعف ثمنه.

- ضعف ثمنه! وهل أنا مجنون كي أضع عشرة دنانير في قدمي، أتدري أنني لا أضع هذا السعر في رؤوس كبيرة تقول مالا تفعل.

- أنت حر. إن شئت اشتر، وإن لم تشأ فارقنا برائحة طيبة.

كلا والله لن أشتري حذاء جديدا، سأبقي حذائي حتى لو كان متآكلا، سأبقيه مهما أكلت السنوات المبذرة منه، مهما جعلته قديما مهترئاً، سأبقى أمشي به حتى لو أكل الشوك أصابع قدمي، فأصابعي أصلا منظرها غير جميل، وزوجتي كانت تتهمني بالقذارة حينما أحتال عليها كي تنظف قدمي، لكن لا بأس ما دامت ثقتي بنفسي عالية، ولا بأس إن سبب هذا الحديث مصدر القلق عند أهل الحي وبات محور حديثهم، فكل ما يهمني الآن إغاظتهم لأنهم قد أغاظوني أولاً، والبادئ أظلم!

قررت أن أمشي في الشارع بكل تباهي بحذائي البالي، أعلم أنها مشية اختيال يبغضها الله، لكنني مضطر لفعل ذلك لعلي أتمكن من تعكير مزاج المبذرين، فسأصلي لاحقا لربي كي يسامحني،

سأمشي من أمام بيت أبي سالم بالذات، وسأقف أمام بابه مباشرة لأنتزع الشوك من أصبع قدمي على مهل، ولينادني بعد ذلك بالبخيل كيفما شاء، كما أنني سأتظاهر بالعرج لأمشي ببطء أكثر، سأمر أمام بيت كل واحد من هؤلاء المبذرين سأجعلهم يكرهون مسكنهم، وإن استطعت سأجعلهم يرحلون إلى حي آخر، وليبقى فقط الذين يفهمون بعلم الاقتصاد أمثالي!

مررت أمام بيت أبي عدي، ووجدت عدي يجلس على العتبة حزينا، ففقد أنزل رأسه على الأرض من حزنه، فوقفت أمامه مباشرة كي أسأله عما به، وحينما وقع بصره على حذائي قال لي دون أن يرفع رأسه أو أن يتصفح وجهي.

" أهلا جارنا أبا كريم، هل تريد أبي"

قال جملته ورأسه ما يزال في الأرض، لقد عرفني اللعين قبل أن ينظر لوجهي بالفعل أنه ذكي، لا أدري صراحة كيف عرفني ، فربما أن الحزن يجلب الذكاء! تركته في شأنه وتوجهت إلى المسجد كي أصلي العصر، وحرصت أن أضع حذائي على أعلى رف من رفوف خزانة الأحذية خشية أن يسرق فربما أن حذائي سيصبح عما قريب من التراث، وسيوضع بصندوق زجاجي في أحد المتاحف العالمية! فأحقق حلمي وأصير مليونيرا.

فرغت من صلاتي، وهممت الخروج من المسجد، فكانت الصدمة، "أين حذائي؟! "صرخت في الناس بأعلى صوتي والملايين تتدفق في عيني " أين حذائي، يا ناس لقد سرق حذائي" نظر لي جميع المصلين باستغراب في بداية الأمر، لكنهم أصبحوا الآن يتضاحكون فيما بينهم، وقال لي أحدهم بسخرية:

" وأي حذاء هذا الذي يجعلك تندب وتصرخ كالثكلى؟!"

صرخت في وجهه والجدية تتمالكني

" ربما أن أحدهم قد فكر بما فكرت به قبل الصلاة، وأدرك القيمة الأثرية لحذائي وذهب به لأحد المتاحف"

لم يتمالك الناس أنفسهم من هول الضحك، حتى أن بعضهم استند على الحائط من شدة الضحك، فبدا منظري مضحكا للغاية، فشعرت أنني مهرج، فقال لي أبو عدي محاولا أن يواسيني ويقنع تفكيري الطماع

" ربما أن حذاءك يحتاج لألف عام أو أكثر كي يعتبروه أثريا، وأنت لم تعش سوى أربعين عاما"

نظرت مليا في نفسي، وحاولت أن أختصر الموقف فلملمت نفسي ونويت الخروج من المسجد حافيا لولا أن أوقفني أبو سالم بحديثه اللئيم

" من ذا الذي سيسرق حذاءك المهترئ أصلا، ربما أن اللص سيحزن على صاحبه حينما يراه"

عدت أدراجي ووبخت أبا سالم على حديثه الذي يتقصد إهانتي فيه، لكني توقفت فجأة حينما نظرت حولي فوجدت المصلين قد غادروا ولم يبق إلا أنا وأبو سالم، ووجدت في خزانة الأحذية حذاءين أحدهما لأبي سالم والآخر جديد وهيئته أنه لم يلبس بعد، نظرت إلى أبي سالم بوجوم وحاولت أن أسأله لكنه قد سبقني الحديث وقال لي بثقة:

- أما تزال تفكر في صاحب الحذاء الجديد، ألم تفهم بعد؟! لقد قام أحدهم بتبديل حذائك بهذا الحديث الجديد، فربما أن نفسه لم تتحمل أن يرى ذلك الحذاء القذر في خزانة الأحذية في كل صلاة!"

خرج أبو سالم ودخل العجب لقلبي، فقد أيقنت أن حذائي لم يسرق، فقد صدق أبو سالم القول "من سيسرق حذائي أصلاً"، على العموم أسال الله أن يجزي الذي أبدل حذائي القديم بهذا الحذاء الجديد كل خير، لكن بصراحة ما زال الشك يقتحم قلبي، فما الذي يجعل غيري يستبدل حذائي بحذاء آخر، ألا يعقل أن له مصلحة في ذلك، وبقيت أفكر في تلك المصلحة حتى مررت بجانب أقرب حاوية للمسجد، لمحت حذائي القديم بجانبها، فاستولى الغضب على كياني، ألهذا الحد باتت فضلات الآخرين تضايق الناس لدرجة أن يدفعوا

نقودهم في سبيل التخلص منها ، لكن لن أهتم كثيرا ما دمت حصلت على حذاء جديد دون أي مقابل، وهذا أهم ما في الموضوع أنني لم أدفع أي فلس لإحضار حذاء جديد، لذا أمسكت حذائي القديم بيد وألقيته في الحاوية وأنا أضع يدي الأخرى على أنفي متذمرا من رائحة حذائي النتنة.

النهاية

تمنيت أن أكون مثله

أخذ الذهول جميع سكان أهل الحي، حتى اعتقدوا أن جسمه قد انشطر لقسمين والنصف الآخر قد مات لما رأوه من تصرفات هذا الفتى المحبوب من قبل الجميع، لكن هذا التصرف بالذات لم يرض أي شخص سوى والديه لأنهم لا يفهمون ما مغزاه، كان سعيد يذهب كل ليلة للمقبرة فيجلس هناك يفكر بأمور الدنيا وما بعدها ليزداد تمسكا بالحياة الدنيا ليعمل فيها كل خير يدخله جنان الآخرة.

بالرغم من المرض اللعين الذي أصاب سعيد إلا أنه لم يقهر أو يتضجر ويسب الحياة إنما تصرف تصرفا تخشع له عظمة الجبال وسعة البحار، أخذت البسمة تزين وجهه المشرق فهي لا تنصرف عنه أبدا، أخذ يجالس الكبار تارة والصغار تارة أخرى، يستمع لهذا مرة ولذاك مرة أخرى، إنه لا يمل أبدا من الحديث الخفي ولا ييأس من محادثة الصغار لأنه يجد فيهم معنى الحياة الحقيقي والتفاؤل المستمر بعيدا عن التشاؤم المنفر وفي ذلك مصلحته بإرضاء نفسه وإقناعه أن ما أصابه ابتلاء من الله تعالى.

لم يبال بما أصابه، لم يبال بإظفار المنية التي تحاول نهشه جسمه الغض وعوده الرقيق. لقد عمل جاهدا أن يبقى سره في بئر عميقة لا يسهل الوصول إليها ، وذلك ليرحم من ظاهر الشفقة التي سيمارسها الناس عليه عندما يعلمون بمرضه. لم يستول عليه المرض إلا في الآونة الأخيرة فالسنين العشر التي عاشها من عمره لم تكن إلا وهم، فعندما أراد الخروج للواقع بعيدا عن الأوهام افترسه المرض بمخالبه وعندما علم بطبيعة مرضه أصر أن يبقى سره طي الكتمان، فعاش الحادية عشر من عمره وأكمل إلى الرابعة عشر دون ان يكشف الناس مرضه الخطير.

وها قد عاد سعيد من المقبرة بعد زوال الفجر وبزوغ شمس أمل جديدة ليبدأ يومه ويعيشه بحب وإصرار، وبعدما صلى صلاة الشروق استعد للذهاب لمدرسته فقبل يدي أمه وهي تضع حقيبته على

ظهره وخرج وهو يبتسم لها داعية ان يوفقه الله ويحميه من حوادث الدهر.

لقد كان هم سعيد أن يتفق مع زميله فريد ويسيرا معا على درب واحد، فقد تحولت المنافسة بينهما إلى حقد وكره من وجهة نظر فريد أما سعيد فقد كان حريصا على أن تكون منافستهما شريفة للتوصل معا لأبرز النتائج، لكن كان هذا المفهوم عند فريد لا يساوي شيئا، لذلك عمل جاهدا لمضايقة سعيد قدر الإمكان ليصده عن طريق الوصول للمركز الأول.

وبالرغم من مداخلات المعلمين والآباء لحل سوء التفاهم بين الزميلين إلا أن فريدا ما يزال متشبثا برأيه، فقال ساخرا

- أتفشت الواسطة لهذا الحد، حتى تصل للطلبة والمدارس؟!

فامتلأ قلب سعيد حزنا وألما من تصرفات زميله وازداد حزنا وأسى عندما عيره فريد بمرضه المميت.

مشاعر الألم استولت على قلب سعيد، بينما قد استقرت مشاعر الشفقة والحزن على وجوه المعلمين والطلبة حينما علموا بحقيقة مرض الفتى الصغير. فقد انقشع الغمام عن سر الفتى وقد جاء ما كان يخشاه، فالشفقة بدأت تقترب من سعيد محاولة أن تنهش لحمه أكثر من مرضه. فقد اكتشف الآن مصدر الحركة التي سمعها خلف نافذة بيته، فلم يتوقع أبدا أن زميله سيتجسس عل حديثه مع أهله، فقال بحرقة

- سامحك الله

ثم خرج وترك حلمه ليجر أذياله وراءه، تاركا جميع الحضور في مدرسته متجمدين مكانهم فلم يتمكنوا من فهم الأمر. أربع سنوات ولم يبق للخامسة إلا أسبوع واحد وسعيد يكتم سره، وهو يعيش حياته بشكل طبيعي مثله مثل باقي الناس دون أن يظهر عليه أي بادرة مرض.

جلس في بيته ستة أيام دون أن يذهب للمدرسة وقلبه ممتلئ بالحسرة لتتلاشى قبل يوم ميلاده بيوم واحد عندما جاءه فريد بوردة حمراء قائلا له:

- كل عام وأنت بخير.

تعوضت حسرته فرحا، فنام نوما هنيئا قبل أن تشرق عليه شمس يوم ميلاده لتوقظه أمه لتفاجئه بهدية ميلاده، وعندما فتحت الباب وجدت العصافير تشدو على نافذة الغرفة بشجن، فهرعت أمه لدرجة أنها خشيت أن توقظه.

فلم الهرع والخوف؟!

يجب أن تعلم هذه المرأة أن ابنها قد ودع الحياة بجدارة، فقد أثبت للجميع كيف بإمكانهم التعايش مع المرض، فالحق يقال ان آخر خمس سنوات من عمره كانت أجمل سنوات يعيشها سعيد.

النهاية

مع مرور الأيام

أوراق منسوخة عن بعضها بعضا، وحروف تتكرر في الجملة ذاتها كثيرا...

قبل عشرين سنة

كانت الآمال متعلقة في رقاب الأبناء، والوالد يرسم ملامح التباهي على وجهه المجعد مجرد ما عرف أن ابنه سيسافر ليعود بشهادة كبيرة، والتنافس بين أبناء العشيرة قد وصل لأقصى درجاته، لذلك سافر وليد اليوم للدراسة وقد كان يتمنى أن يجد هناك شخصا من دولته لعلهما يتقاسما هموم الغربة ويقضيا على وحش الوحدة بضربة ثنائية أساسها الصداقة، وبالفعل لم تخب آمال وليد، فقد التقى مع مواطنه بسام الذي سافر اليوم ليدرس التخصص ذاته، فأبو بسام يحمل في عقله أفكارا مشابهة لأفكار أبي وليد، ألم يرضعا من تربة الوطن ذاته؟!

تجسدت بينهما علاقات متينة جعلتهما يحسدان عليها من قبل باقي الزملاء، فرفقتهما باقية ما بقيا، لذلك تعاهدا ألا ينقطعا عن بعضهما حتى لو انهيا دراستهما وعادا إلى أرض الوطن مع العلم أن كل واحد منهما يقطن في مدينة تبعد عن الأخرى مئة كم.

لكل بداية نهاية، هذا ما تعلمناه من مرور الأيام، لكن هل جميع النهايات سعيدة؟...

قبل خمسة عشر سنة

عمت الفرحة أرجاء المدينتين فقد عادا للوطن ذاته، وحملا على عاتقهما أحلاما كثيرة تعجز الجبال على حملها، فاحتضنت كل مدينة ابنها وتباهى كل والد بابنه، فلطالما قد انتظرا هذه الفرحة، ولطالما قد اقسما على الله أن يقيمان الولائم إذا ما تكحلت عيونهما برؤية ابنهما، وهاقد تحققت الأمنية، فافلحوا يا بشر على ما قسم الله.

كان وليد يجوب فيافي قريته لعله يحظى بفرصة عمل، وقد كانت نفسه مليئة بالاشتياق لصديقه بسام، وقد كان يدعو ربه أن يوفق

صديقه في عمل ما يعيله على بناء مستقبله، بينما كان بسام قد أحضر واسطة عملاقة جوفاء مكنته من الحصول على العمل، فربما انشغاله في عمله الجديد جعله لا يبالي باستفسارات صديقه وليد عنه، وربما قد تلاشى وعده تحت ضغط العمل، فقد أعطى وليد عنوانه لصديقه بسام دون أن يأخذ عنوان سكن بسام، فلم يهتم بالأمر كونه كان يعتقد أن صديقه سيزوره في أقرب فرصة وبعد ذلك يتبادلان الزيارات، كان القلق يساور وليد بين الحين والآخر حتى قرر أن يذهب لمدينة بسام وحاول أن يستفسر عنه لكن مدير أعمال صديقه قال أنه سافر للخارج لأداء بعض الأعمال.

حينئذ قرر وليد أن يسافر هو الآخر لاستكمال دراسته ويحصل على الشهادات العليا لعلها تمكنه أن يكون أكاديميا في إحدى الجامعات، وبالفعل قد سافر وليد وشوقه لصديقه لم ينقرض بعد!

لن تستمر الحياة طالما كان اليأس يرافق أيامها، لذا لا بد من القضاء عليه كي تستمر الحياة...

قبل سبع سنوات

ما يزال بسام يتطور يوما تلو الآخر في عمله، ويحقق نجاحا لا نظير له، بينما قد حصل وليد على شهاداته العليا وعاد لوطنه ليستقر في إحدى الجامعات المحلية، فقد أصبح أكاديميا مشهورا، محبا لعمله محبوبا من قبل طلبته، وقد كان في ذلك الوقت يستذكر ذكرياته مع رفيق دراسته بسام، وكم تمنى أن يلتقي به، وكم تمنى أن يعرف إن كان بسام يفكر به أم أنه قد نسيه وانتهى الأمر، لقد كان يسأل عن الأمر دون أن يعرف أن صديقه قد نسيه بالفعل.

قبل أربع سنوات

تخرجت من الثانوية العامة وسط إلحاح شديد من أهلي للتخرج بمعدل مرتفع لعلي أتمكن من دراسة التخصص المطلوب، وها قد تمكنت من دخول الجامعة بالتخصص المرغوب، فصفقوا يا أهلي لأحلامكم فقد تحققت. دخلت الجامعة وقد كان كل همي أن أدرس المساقات التي يدرسها " الدكتور وليد" فصيته قد سبقه، وعلمه قد

أنطق جدران الجامعه، وحسن معاملته أوشك أن يصبح مساقا يدرس في الجامعة، وبالفعل قد التحقت في احد المساقات التي يدرسها، وحينما نظرت إليه ولأسلوب تعامله معنا، شعرت أن المديح الذي سمعته عنه قد ظلمه، فهو يحتاج لأكثر من ذلك بكثير من معسول الكلام، وفي مرة اضطررت أن أدخل المحاضرة متأخرا وحينما سألني عن السبب قلت له أنني أقطع مسافة طويلة حتى أتمكن من الوصل للجامعة، ولما سألني عن مكان سكني أجبته به، فإذا بملامح وجهه قد توزعت على القطبين المتجمدين، وطلب مني أن أعيد له اسم مكان سكني، فلبيت طلبه بعدما تلهف أن يتكلم معي بعد المحاضرة. فاتجهت نحو مقعدي وابتسامة الفخر لا تفارقني وسط غيظ زملائي، فربما أنهم سيحسدونني لأن " الدكتور وليد" طلب مقابلتي.

انتظرت انتهاء المحاضرة بفارغ الصبر، لأعلم ما يريده الدكتور وليد مني لذلك أسرعت نحو مكتبه وانتظرته قليلا، فابتسم لي عن بعد ومد يده لتصافحني قبل أن يصلني، فتعجبت كثيرا لاهتمامه المفاجئ بي، فقلت له:

- تفضل... هل من خدمة أقدمها لك؟

ابتسم الدكتور بعدما لاحظ بوادر الفضول وهي تترعرع في عيني، فقال ضاحكا

- على رسلك يا بني، الأمر بسيط!

دخلت مكتبه، وتناولت قطعة من الحلوى، وأجبته على استفساره، ثم هممت للالتحاق بما تبقى من محاضراتي.

في ذلك الوقت كان بسام يتألق في عمله، لدرجة أنه اهتم في عمله أكثر مما يهتم بزوجته وأطفاله، إلا أن هذا الأمر لم يزعج زوجته بتاتا، كون زوجها يجني المال الكثير ويحقق مجمل رغباتها التي لا تنضب، فهي ما تزال تراه تلك الآله التي تسك النقود، ولا تبالي بالعلاقات الانسانية أو الاجتماعات الترفيهية التي تشعرنا بانسانيتنا وانتمائنا لبشريتنا.

عدت إلى البيت، وطلبت من أبي أن يحضر لي رقم هاتف بسام، فهذا ما طلبه مني الدكتور وليد، فقد استبشر خيرا حينما علم مكان سكني والذي يجمعني بصديق عمره بسام، وسألني إن كنت أعرفه أم لا؟! فأخبرته أن أخاه صديق أبي منذ زمن.

بعد أن تحدث الدكتور وليد مع صديقه بسام في الهاتف، تيقن أن صديقه بسام قد تناساه للأبد، فقد تظاهر بعدم معرفته للدكتور وليد، رغم المزيد من التوضيح والذكريات التي أخرجها الدكتور وليد من خزانة الماضي، إلا أن بسام أصر على عدم معرفته للمتصل حتى لو لم يبق في الخزانة إلا خشبها!

تعجبت وقتئذ من تصرف بسام، فما الذي يدفعه لهذا التصرف، وما الذي يضيره لو تعرف على صديقه والتقيا من جديد، إلا أن أبي وضح لي السبب، فربما أن بسام لا يريد أن يضيع وقته في مجاملات مزيفة من وجهة نظره في استقبال الضيوف والترحيب بهم وانفاق النقود مقابل ذلك في سبيل استرجاع الذكريات، فالذكريات لا تطعم خبزا، وبالتأكيد زوجته هي وراء كل ذلك!

الحياة لا تقف عند محطة واحدة، فربما تنقلنا لمحطة جديدة تغير واقعنا وتقلب أمورنا.

قبل أيام

تخرجت من الجامعة بعد طول عناء، ولملمت ذكرياتي كي استرجعها وقت الرخاء، وطيف الدكتور وليد سيبقى ملازما لي كي اتخذه قدوة في حياتي ما حييت، ودعواتي له بالخير سترطب لساني على الدوام، ولعل الله قد استجاب إحداها ليصدر مثل هذا القرار.

بعد التشكيلات الوزارية الأخيرة، صدر قرارا بتعيين الدكتور وليد وزيرا للتعليم العالي، وبهذا سينقل الدكتور وليد خبرته وحسن إدارته لكل جامعات الوطن، فكان هذا الخبر بمثابة فرحة عظيمة لكل محبي الدكتور وليد، لكن بالوقت نفسه قد صعق هذا الخبر أذني بسام كما يصعق الرعد أذن السماء، فعض شفته ندما، وتمنى لو أنه لم ينكر معرفته لصديقه، وخصوصا أن لديه ارتباطاته الواسعة بوزارة التعليم

العالي، وهنا بدأت أنياب المصلحة بالظهور، ومخالب الأنانية تشبثت بحبال الجشع قدر الإمكان، كما أصبح يتخبط مكانه كما لو أصابه مس، فهدأت زوجته من حاله، وأقنعته أن يكلم صديقه من جديد.

نبتت علامات التعجب في وجه بسام بعدما ارتوى من حديث زوجته المبهم، فكيف له أن يهاتف الدكتور وليد بعد كل ما حصل، إلا ان زوجته كبرت في عينه حجم المصلحة وزخرفتها مبررة ذلك في قولها

- الأمر بسيط، تستطيع أن تقول لصديقك أنك لم تعرفه من صوته، ولم تسعفك الذاكرة لاستذكار ما مضى، وانك عرفته حينما رأيته على التلفاز.

راقت الفكرة بسام وبالفعل قد اتصل مع الوزير وليد وليس هذا فحسب، بل حدد الوزير موعداً لمقابلة صديق دراسته، فطيبته قد مسحت آثار الشك من دماغه.

قد يمسح أصحاب المصالح كل مهام الحياة من جدول أعمالهم لمجرد استغلال المصلحة

اليوم

انطلق بسام بسيارته نحو مكتب الوزير وليد لمقابلته واسترجاع ذكريات الماضي، وألصق على لسانه عبارات الثناء والمديح ليقدمها للوزير، لعله يجدد تلك المكانة القديمة التي احتلها من قلبه.

لم يبق سوى أمتار معدودة حتى يصل بسام لمكتب صديقه الوزير إلا أن موكب السيارات الضخم منعه من ذلك، فنزل من سيارته محاولاً أن يستفسر عن الأمر، وبعد برهة من الانتظار وجد رجلاً ينتظر مرور السيارات لعبور الشارع فبادره بسام بالحديث قائلا بتهكم:

- ما الأمر... لم كل هذه السيارات أمام مكتب الوزير

ارتسمت علامات الحزن على وجه الرجل وقال بأسى

- مسكين هذا الوزير، ما إن أصبح وزيراً حتى تفقده الله في رحمته.

سيطر العجب على وجه بسام وقال بغضب

- هل تقصد أن الوزير قد مات.

- نعم. نسأل الله له الرحمة

ماذا ينتظر الواجب من أصحاب المصالح سوى الأنانية وسوء الخلق.

بعد قليل

أردف الرجل حديثه مخاطباً بسام

- ربما أنك تعرف الوزير شخصيا، ولا بد انك ستلتحق بموكب جنازته، لذا أرجو أن تأخذني معك إن لم يكن عندك أي مانع.

حملق بسام بالرجل بازدراء، وركب سيارته دون أن يجيب الرجل بأي كلمة ثم انطلق في الاتجاه المعاكس للجنازة قاصداً بيته حيث زوجته.

النهاية